

رِوَايَةٌ

نَجِيَّة

مُحَمَّدُ حَافِظٍ

عنوان الكتاب : بُنْتُ نبي

المؤلف : مَحْمُود حَافِظ

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : اسلام مجاهد

رقم الإيداع : 2017 / 1538

ردمك : 978-977-6549-22-7

الطبعة الأولى: يناير 2017



المدير العام : هاله البشبيشي

المدير التنفيذي : شريف الليثي



دار تويّا للنشر والتوزيع



dartoya2015@gmail.com



دار تويّا للنشر و التوزيع Dar.toya



@Dar_Toya



Dar.toya



(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014



٣٥ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رِوَايَةٌ
نَبِيَّةٌ

مُحَمَّدٌ حَافِظٌ

دار تويّا للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾^(١)

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

(١) الْقِيَامَةُ ٥ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

" بَلَا ثِيرَانٌ، تَطَلُّ الْحَظِيرَةَ نَظِيفَةً، وَلَكِنَّ عَظِيمَ الْفَائِدَةِ يَأْتِي مِنْ
قُوَّةِ الثَّوْرِ"^(١)

(١) الإصحاحُ الرَّابِعُ عَشَرَ ٤ سَفَرُ الْأَمْثَالِ الْعَهْدُ الْقَدِيمِ

الجزء الأول

سجين

أراه هناك.. يعلو قمةً الجبلِ، يرفعُ خطمه في شموخٍ
مُطلقًا عواءه العتيد... رهيبًا، حزينًا يملأ الكون، الذئب..
هو في أثري مثل كلِّ يومٍ، ها أنذا عند سفح الجبل..
ضعيف.. أعزل، أرتجفُ خوفًا وبرداً، أعرفُ أنه يقصدني..
يرمقني مليًا من عليائه ثم يهبطُ الجبلَ حثيثًا في اتجاهي،
أتجمدُ للحظةٍ، عيناى تتحجران صوبه... وأخيرًا أطلق
ساقِيَّ للريح.

أبتعدُ عنه قدر ما تسمحُ قدماي النَّهَّابتان للأرض،
الضوء ضنينٌ عزيزٌ رغم اكتمالِ القمر، ودييب قوائمه
الأربعة خلفي... يختلط مع وجيبِ قلبي، رثاي تحترقان...
قدماي تشجبان سوءَ المعاملة، حاولتُ الاستماتة في العدو
رغم معرفتي أنه لا فائدة؛ فمنذ متى والمرء ينجو في
الكوابيس؟! وفي الكابوس رقم عشرين!

فعلًا... أنا في كابوس، تكررّ عشرين مرةً حتى صرْتُ
أدرك وجودي فيه أثناء نومي، عناصره ثابتةٌ في كلِّ مرةٍ..
الجبل.. الجرف.. والذئب، يُطارِدني الذئبُ لأهوى من
الجرفِ إلى البحرِ المظلم، لا يحدثُ هذا للنهية وأصحو
بينما أهوي من حالي، ويتردّدُ صوتٌ قريبٌ يُناديني،
أَيكون صوتُ أحدهم يوقظني في الواقع؟ ليته يفعلُ هذا
الآن، فكابوسُ اليوم أشدُّ هولًا، وتحقق مرادي إذ سمعتُ
الصوت.. يُنادي باسمي من جديدٍ، انتهى الأمرُ إذن...
لكنني لم أصحُ بعد.

بل ملحتُ ظلًّا طويلًا أمامي، ظلًّا حيوانيًّا بالتأكيد،
كتلةٌ سوداءٌ في الضوء الشحيح، يمضي عكس الاتجاه
على أربع هو الآخر، يقصدي أنا بكلِّ تأكيد، لقد تطوّر
الكابوس أخيرًا... فليتهدم الماخورُ على رؤوسِ مَنْ فيه إذن،
تركتُ نفسي لهما... أرحتُ أنفاسي لوهلةٍ، فالمصيرُ واحدٌ
وسأصحو بين أنياب أحدهما، وصل الشيء الطويلُ البدينُ
إليَّ أولًا.. مدَّ ذراعيه المخلبيتين و... حملني، نعم حملني
وانحنى ليضعني على ظهره ثم أكملَ طريقَي القديم
بعيدًا عن الذئبِ.

كان يبدو كدبٍّ عملاقٍ، أنقذني من ذئبي، يمضي بي
بأقصى سرعته، فتشبّثُ به بكلِّ عزمي، لن أفلته ولن

أدعه يُفلتني، هو فعلاً دبُّ وما دام كذلك، فهو في صفِّي،
أرجو هذا في الحُلْم على الأقل، وسمعتُ الصوتَ يُنادي
من جديدٍ... يعلو باسمي... يصيرُ أجشَّ قاسياً بالتدرّج
و... وهنا صحوْتُ، صحوْتُ على أقصى ألمٍ يُمكن للمرء
النائم أن يتوقعه.

- ٢ -

تهوي الصّفةُ فوق خدِّي بكلِّ قوّتها، لم يدّخر
صاحبها جهدًا حين قرّر إيقاظي، أصحو مُرتعبًا مُرتعدًا
في سريري، أبحثُ عن مُهاجمي في ذعرٍ، شهقتُ كمن يرى
جحيم الخطاة، حين قابلني الوجهُ الغاضبُ القبيحُ في
ضوء القنديل، يرمقني متوعدًا بقسوةٍ.. مع خمسةٍ وجوهٍ
أخرى تحتلُّ المشهد، كلها لمجانيقٍ بشريةٍ شغلت غرفتي
الصغيرة، مدججين بالسلاحِ كمن خرج للحرب، ألم ينته
الكابوس بعدُ؟

- "ما... ما الأمر؟!"

- "تعال معنا!"

- "ولكن..."

لطمةٌ أخرى تطالني، كانت إجابة اعتراضِي، شعرتُ فوراً بطعم الدم الصديء عند طرف شفتي، بينما تجذبني أياديهم المنجلية بلا كلمةٍ أخرى لخارج الغرفة، يركلون كل ما يعترضهم، طاولتي الخشبية وكتبي العديدة على الأرض، تتبعهم قدمي وحدها بلا إرادةٍ مني.

هؤلاء القومُ يبغون طاعتي وحسب، أسلحتهم والألوان السوداء على أجسادهم تُوحى بأنهم من أمن العاصمة، مع لهجتهم الأمرة القاطعة، كل هذا يعني أنهم مأمورون بنقلي لِمكانٍ ما، تركتُ نفسي لهم، عرفتُ أن الوقت قد حان، إلى المنفى حتماً أو العذاب الفعلي ووداعاً لذئب الأحلام الطيب المسالم.

كنتُ دائماً مُختلفاً عن الركب، مُتردداً بشأن مسلماتي ونظراتي للأمور، اختلافي جلب لي الحيرة.. التخبط.. والوبال، أنا ضدُّ عالمي... وعالمي سيقترضُ مني يوماً ما، تلك هي جريمتي كما قال لي صديقي الوحيد مراراً، لستُ معه فأنا ضده... حتى لو لم أحاربه، كقطبي مغناطيس متشابهين يتنافران، حسب ما درسته في الفيزيكا، لكني لا أشبه عالمي... فكيف أتنافرُ معه؟!

ذرع القومُ بي صحن داري، تطوفُ بذهني الخواطر... تسعى لتفسير الواقع العسير، أمي وأبي يرمقانني بعيونهما

الناعسةِ المُجفلةِ في ركنٍ قصيٍّ، لا بد أنهما أدركا مثلي
استحالةَ التعامل مع هؤلاء، والداي لم يهتماً يوماً بحالي
الغريبِ وأطواري الأغرِب، هذا مصيرُ كلِّ مَنْ كان مثلي
على كلِّ حالٍ، ربما تكونُ النظراتُ الأخيرةَ بيننا، نظرتُ
إليهما في جوعٍ.. جوعٍ إلى كلِّ نظرةٍ.

أخرجوني إلى الليلِ البهيمِ، البيوتُ ترمقني بتشفٍّ
على جانبي بيتي، كلها من القشِّ أو الطوب اللين، تعجُّ
بالآخرين المُسلمين السَّالمين، مُسلمين للمجتمع وهكذا
صاروا سالمين، لا تنتظرهم مثلي عربةٌ مُدعمةٌ بالقضبان
الحديدية من كلِّ جهةٍ، تجرُّها أربعة جيادٍ لا تختلفُ عن
أصحابها في شيءٍ، دفعوني في القفص مع اثنين منهم، وألهبوا
ظهورَ الخيل بسياطٍ ألمني صوتها، فانطلقت سناكبها لا
تلوي على شيءٍ، غطُّوا وجهي بقماشٍ فضفاضٍ كيلا أرى
الطريقَ، ارتاح ساعدي أخيراً من أصابعهم، على الأرجح...
ليس لوقتٍ طويلٍ.

لطماتٌ وصفعاتٌ أخرى أيقظتني، إذ نمتُ مُتكوراً رغم
حركة العربة السريعة المهتزة، حاولت تهدئتهم بكلماتٍ
متوسلةٍ ليكفوا الأذى فزادوا في غيِّهم، استسلمتُ مع دموعٍ

طفْتُ من عيني تحت القماش، أزاحوه وأخرجوني حيث
استقرت العربةُ أخيراً، خرجتُ منها ليفاجئني المشهدُ
المهيّبُ الذي لم أتوقعه في أجمع أحلامي.

قصرٌ شامخٌ أبيضُ الجدران، يتنافر بياضه بشدةٍ مع
عتمة الليل المقمر أعلاه، ذو أبراجٍ بالغةِ الطول وقبابٍ
عديدة، تنتشرُ المشاعلُ في الأبراج فيما انتصب فيها جنودٌ
سودٌ آخرون شاكُّو السلاح من قِسيٍّ ورماحٍ، تنتهي الأبراج
والقباب قاطبةً بهلالٍ لامعٍ في ضوء النيران، ويسألني عقلُ
كالمعتاد في أحلك المواقف؟! ما فائدة القباب.. وما معنى
الهلال؟! وأي قصرٍ مهيبٍ هذا!؟

يقتادُني الرجالُ من جديدٍ لباب القصر هذه المرة،
عليه الجنودُ السودُ مسلحين كأفضل ما يكون، كل شيء
أسود.. كلُّ شيء مظلمٌ كاحلٍّ، بالداخل كانت شبكةٌ مُعقدة
من الممرات الصخرية المضاعة بالقناديل، نتقلُ من ممرٍ
لممرٍ وألمح أجساد الجنود السوداء تلمعُ في كل اتجاه، هذا
كابوسٌ.. حتمًا كابوس، كنتُ نائمًا في سريري وإذ بي هنا
في هذا القصر... بل هذا السجن، نعم سجن.. الأبوابُ
والنوافذُ ذات القضبان في كل مكانٍ، هذا هو معتقلي
ومنفاي.

يجرّونني جرّاً، يُعاملوني أسوأ من بغلٍ في حظيرةٍ، طفح
الكيل وغُصصتُ بالهول حتى فاض وأغرقتني، وجدتُ
نفسي أصرخُ وأزومُ كوحشٍ حبيسٍ، اتركوني.. دعوني يا
أوغاد.. يا أوباش، تبادلتِ القبضاتُ جسدي العاري من
أيّ حمايةٍ، تتبعها الركلاتُ والصفعاتُ وما شابه، في النهاية
صرتُ كومةً ضعيفةً في أيديهم، يجرّون جسدي الخانع
المستسلم للأرض، ولم يمض الكثيرُ حتى فتحوا بابًا وألقوا
بي هناك، صفقوا الباب خلفي بعنف.

- "أخطأتَ يا صديقي.. كدتَ تصل بالفعل، ما كان
عليك أن تقاومهم للحظة!"

سمعتُه... صوتًا منهكًا بشدةٍ يكلمني، رَفَعْتُ رأسي
مُستطلعًا المكان، زنزانة كئيبة ضيقة، بها مشعلٌ واحدٌ،
وعلى ضوءه... رأيتُ كليهما يتطلعان إليّ، أحدهما مُغطى
الوجه بقماشٍ يُخفي ملامحه كلها عدا فتحتين للعينين،
كان الأقرب إليّ ويبدو أنه من تكلم للتوّ، أما الآخرُ فكان
كهلًا يستندُ لجدار الزنزانة باسمًا بمرارةٍ، قال حين نظرتُ
إليه:

- "يا مرحب... يا ميت ألف مرحب... شَرَفَتِ الزنزانة!"

تلك اللغة الشعبية المتدنية التي تكلم بها الكهل،
يتكلمها أسافلُ القوم معيشةً وتعليمًا، لا تجدهم سوى

في المناطق العشوائية الغارقة في الفقر والبؤس بعيداً عن العاصمة.

لفت نظري شيء ما في الأرضية، عليها نقشة لا أفهمها،
مستطيلات تتجه كلها لاتجاه واحد، كأنها تشير لشيء ما،
أي سجن هذا؟! لمس ذو القناع حيرتي ووهني، تقدّم إليّ
وأسنديني للجدار، جسده يحمل آثاراً للتعذيب لا تختلف
في شيء عن زميله الكهل، قال مواسياً:

- "لا تخف.. نجوت لوهلة منهم... هلاً نتعرّف؟"

نظرتُ إليه بضعفٍ... ما زلت غير مستوعبٍ لكل ما
أنا فيه، ربّت على كتفي الموجوع وقال هازماً رأسه:

- "محمد عيسى... دين"

دين؟... ما قصده؟ لكن الآخر عاجلني بقوله:

- "وأنا... غاندي مانديلا... سياسة"

سياسة؟... فهمت قصدهما بعد برهة، رددتُ أخيراً
بصوتٍ متحشرجٍ جرّاء الصراخ:

- "إيساف... إيساف برصيصة، أنا لا أعرف لماذا أنا هنا"

ارتفعت ضحكات الكهل مجلجلةً في المكان:

- "إيساف... وبرصيصة؟!.. إيه الورع ده كله! تصدق؟!..
من اسمك ده ممكن أخمن تهمتك، أنا سياسة وهو
دين.. تبقى إنت إيه؟ أكيد سيكو سيكو طبعًا! عشان
نكمل مع بعض الثالث المحرم! عمومًا.. وعشان
بس تبقى في الصورة، إنت دلوقت في أفضع سجن
ممكن تتخيله.."

- "أفضع.. أفضع سجن؟!.. لماذا؟"

يقف ذو القناع ناظرًا نحوي، يقول في حسم:

- "الإجابة عندك يا إيساف... من أجل تهمتك بالتأكيد،
وكما قال غاندي.. أنت الآن... هنا معنا، في أسوأ
سجن على الإطلاق.. أو كما يُسمونه عادة...
(المسجد)."

لسببٍ ما وجدتُ نفسي أسأل:

- "لماذا... لماذا يُسمُّون هذا السجن بالمسجد؟"

صمت محمد قليلاً، نظرتُ لي عيناه الظاهرتان من قناعه، أدار لي ظهره وقال بصوته المتعب:

- "لأنهم يُجبروننا على السجود في اتجاهٍ واحدٍ... كما ترى على الأرض، بالمناسبة... أنا لا أكشفُ وجهي، لأنك لن تتحملَ رؤيته، صوتي المبحوح هذا... من أثر الصراخ الدائم، لا أقصدُ إخافتك.. أنا فقط أُحذرك".

فهمتُ ما عناه، التعذيب... التشويه... الـ الجحيم، أنا في الجحيم بعدما كنتُ مطمئناً في بيتي أحلم بالكوابيس وأقاسي مرارة واقعي وحسب، لأهنأ بوجهي.. قبل أن

يأخذوه مني كما فعلوا مع محمد، وبكيث.. دفنتُ
وجهي بين كفيّ وأطلقتُ لدموعي العنان، هنا وجدتُ
من يدفعني بشدة.. رفعتُ رأسي ناظرًا إليه لألقى الصفة
تنهالٌ على خدي، كان هذا غاندي.. مُغتاضًا حانقًا يهتفُ
بلغته الغجرية:

- "يا جبان... أنت جيت هنا عشان قضية... استحمل
زيّ الرجالة!"

صرختُ من فوري باعدًا إياه بيدي.. كفاني صفعًا
وضربًا اليوم

- "أنا هنا بلا سبب... أخبرتك بهذا".

- "مفيش حدّ هنا من غير سبب... أنت ليك قضية
وكلها كام ساعة ويحققوا معاك، يمكن تتعذب
ويشوّهوك زيّ محمد، ويمكن تتحبس هنا للأبد زيّ
حالاتي.. أنا هنا من ٣٠ سنة، وإنّ مش مستحمل
قلم على وشك".

ونظرتُ له مذهولًا، ثلاثون عامًا في هذا السجن، لماذا؟!

- "لماذا حبسوك هنا ثلاثين سنة؟!.. ولماذا شوّهوك يا
محمد وعدّبوك؟!"

صمتُ دام للحظات، بعدها تكلم محمد:

- "برأيك.. لماذا حبسوا وعذبوا الملايين غيرنا في تاريخ هذا العالم الحزين؟! اختلاف وجهات النظر يا صديقي.. أنا أظنُّ شيئاً وهم يظنون غيره، وتتصادم الإرادات.. إرادتهم أكبر، حبسوني ظناً أن فكري جريمة".

- "وهل الفكر جريمة؟!"

- "حين يتخطى حاجز الفكر، حين يصير دمًا وحركةً وتهديداتٍ... وفي الأغلب سيصيرُ، بيني وبينك.. لو كنتُ أنا الأقوى، لفعلتُ هذا بهم!"

أوماتُ له بدهشةٍ... تفعل مثلهم؟! أجب باسمًا:

- "لا تستغرب، حين يهزمني أخي الصغير في التشاتورانجا^(١) وأعجز عن ردِّ الهزيمة... ماذا تحسبني أفعل؟ أوسعهُ ضربًا! هكذا الدنيا.. وهكذا البشر، والفكر... أمضى سلاح".

- "لكني احتفظت بفكري لنفسي... كنتُ فقط.. أتجنَّب الآخرين، أبتعدُ عن السياسة والدين وكل شيء، أخبروني أنتم عن الدين.. أخبرني أنت عن السياسة".

(١) التشاتورنجا : الجد الأصلي للعبة الشطرنج.

- "السياسة نجاسة!"

ردَّ غاندي ساخرًا، ثم أردف:

- "السياسة بقت مجرد وسيلة لإخضاع الناس للسلطة، تنويمهم... تليينهم... تعتيم نظرهم، يعني حاجة أبيضة مش أكثر، أنا من الناس اللي حاولت ترجع السياسة لمعناها، ساس يسوس... شيء هدفه سعادة الناس، عشت مع أقل الناس في المستوى.. عرفت أفكارهم وتكلمت بلغتهم، كانت النتيجة أنني جيت المكان الجميل ده، و فهموني فيه إن السياسة برضه منها الساس... الساس اللي بيتعامل مع الخيول، بمعنى إن الناس خيول هايجة... والساس بيروضها لحسابه، وأنا مش عاوز أقتنع وأديني هنا لغاية ما يقنعوني! قول لنا بقى يا عم محمد... الدين يبقى إيه؟!"

ضحك محمد بصوتٍ خفيضٍ، وقال:

- "الدين؟... الدين تدخين! سجع آخر من أجلك يا إيساف، الدين هو نوعك المفضل من التبغ، كل منا يُدخن كما يُحب أو كما ينصحه كاهنه، أين الدين الصحيح؟ بحثتُ عنه حتى أجده وأظنني فعلتُ، حاولتُ إرشاد الناس... نصحتهم، مساعدتهم واختصار

السكة من أجلهم، لكنهم لم يسمحوا لي، فكري
ضد فكرهم، لهذا أنا هنا ولهذا صرتُ أخفي وجهي
عن الآخرين، بعدما فعلوا بي ما فعلوا، إيساف..
أنت مثلنا.. حتمًا مثلنا".

تَبًّا.. تَبًّا وسحقًا لي وللمجتمع، تَبًّا للصديق والحببية
ولكلِّ ما كان في عالمي وقادني إلى هنا، وعدتُ إلى بكائي،
أذرفُ الدموع في صمتٍ، اقترب مني محمد ورَبَّتْ علي
كتفي:

- "اهدأ.. الإله قادر على إنقاذك".

- "لا... لن يحدث".

- "لا تقل هذا!"

- "كيف يُنقذني الإله وأنا العاصي المرتاب بشأن
أوامره ونواهيهِ؟!"

- "انتظر هنا... ماذا تقصد بكلامك؟"

- "لو كان لي جريمة، فهي أنني لستُ جديرًا بمعرفتي
بالإله.. لستُ خليفًا بمكاني في عاصمة البلاد".

أمسك محمد بمنكبي، وقال في حزم:

- "إيساف... أنا هنا من أجل دين الإله، احك لي يا صديقي، احك لي ولغاندي، سنستمع إليك ونفيدك، عسى أن ننقذك قبل التحقيق فتنجو من مصير أسوأ ينتظرك، فضفض... قُلْ كُلُّ ما تريد.. ربما تتذكر شيئاً ينفعك، ربما تعودُ لصوابك وتُدرك خطيئتك، تتوبُ عنها فيتوبُ عليك الإله ويُغيثك".

نكَّستُ رأسي في يأسٍ، قلتُ شاعراً بقلة حيلتي:

- "حياتي ليست شيئاً، محض عُقد بلهاء وأفكار غريبة وأحلام تتكرَّر كل ليلة".

هنا سمعتُ غاندي يهتف:

- "أحلام؟... بتقول أحلام؟! محمد ليه في تفسير الأحلام... محمد بيفسِّر أحلامي وأحلام المساجين والحراس كمان بكل دقة، احكيه... صدَّقني محدِّش زيهِ هيوصلك للحقيقة".

نظرت لهما، ربما تكون الفرصة الأخيرة لي لأحكي لشخص ما..أحكي ما يعتمل بداخلي منذ زمن بعيد.

سأحكي.. سأحكي لكم، سأحكي عن إساف برصيصة،
الطالب المتخبط، التائه، الحائر بين كل شيء وأي شيء،
منذ نعومة أظفاري، منذ عرفتُ كيف أفرّق بين الألوان،
احترتُ كثيراً... أيّ لونٍ أجمل... أيّ لونٍ أختار... لا أدري،
الأزرق خلاب.. الأحمر بديع.. الأصفر جميل، لا أعرف
أي شيء يُعجبني أكثر، صدّقوني إنه لشيءٌ مؤلمٌ أكثر مما
تظنون وفي نفس الوقت غريب موحش، مثل سكين متعرّجٍ
النّصل قبيح الشكل يشقُّ لحمك، دعوني أنا أكلمكم عن
الدين والسياسة، لن تجدوا عندي شيئاً يُقال! هذا العالم
يعجُّ بالأفكار، النظريات والآراء، في السياسة والدين وكل
شيءٍ آخر، أين الحقيقة.. أيّ طرفٍ هو الصحيح؟

وُلدت في القاهرة، مدينة الألف عاهرة، عاصمة البلاد
المباركة، يحميها دُبُّ الإله.. شعارها الذي يتوسط أعلامها
المرفرفة أبداً، عرفتُ فيها كل شيء مبكراً، رأيتُ النساء
أمامي في كلِّ مكانٍ، في الشوارع ودور العبادة، استشعرت
وقدة الجسد بداخلي منذ حدثتي، لم أفهم... وجدّنتي
حائراً أكثر من كوني راضياً أو مستاءً، كنتُ كذلك وما
زلت، بخلاف كل الناس السعيدة المنطلقة بسليقتها.

هذه كانت البداية... بداية اختلافي عن الرّكب، هل
ينبغي أن نكون هكذا كما خلقنا الإله دون ساتر؟ بالطبع..

لكن لماذا فعلت بي الأجساد العارية ما فعلت؟ كنت أراها
في كل مكان وكل وقت، أليست هذه هي الفطرة؟ طبعًا
هي الفطرة والسليقة السليمة، ولأننا الآن عرايا كما ولدتنا
أمهاتنا... إلا من قناعك يا محمد...

يبدو كلامي هذا غريبًا.. أليس كذلك؟!!!!

النساء بالذات.. عرايا في الشوارع والمسارح بلا قماشٍ
أو جلدٍ يستترهم، كل شيء مكشوفٌ وواضحٌ، يُثير ما يُثير
ويُحرِّك ما يُحرِّك، هكذا وجدتُ حياتي ومدينتي العاهرة..
أين كان الدين من هذا كله؟ كانت المفاجأة أنني وجدتُ
الدينَ عندنا هو من يأمرنا بذلك! وليت الأمر اقتصر على
الأجساد العارية المغرية فقط!

— ٤ —

يقول كاهنُ العَاهِرَةِ الأعظم في كلِّ مرةٍ:

- "خلق الإلهُ الإنسانَ عظامًا ولحمًا وجلدًا، كما خلق الطيور بريشها، والأنعام بوبرها وشعرها، والأشجار بلحاءها، فهل أضاف شيئًا آخر إلى أجساد مخلوقاته؟! لم يفعل.. ولذا فنحن مُحَرَّمٌ علينا أن نُغطي خلق الإله بأَيِّ شكلٍ، علينا العيش بأمر الإله وحكمته".

- "ومن أجل الزينة فقط، يُسمح لنا بدهن أجسادنا بألوانٍ مختلفةٍ، هكذا نكتسبُ المشهد الجميل اللائق ولا نُداري خلق الإله".

يقولون إن طفلًا واحدًا مثلي يُولد كلَّ مائة عامٍ، طفلٌ ينفِرُ من الفطرة والأخلاق ويمقتهما، الفطرةُ في العُري

والتجرد مما يُغطي الجسد، هؤلاء الذين يتغطون ويوارون
خُلِقَ إلههم هم المتنطعون المتبخترون، هكذا تعلمتُ
واعتدت، فما لي لا أريح عقلي النابض بكلِّ شكِّ وارتياحٍ؟
وُلدتُ هكذا ورأيتهم عرايا حولي وألفت مشهدهم.. لا
شك أن هذا هو الحق.. فأين الخطأ؟ دعوني أبدأ معكم
منذ البداية... منذ وعيتُ على الدنيا وعرفتها شيئاً فشيئاً.

كما تعرفون.. اهتممت العاهرةُ بالدين أكثر من
أيِّ مكانٍ آخر، أكثر حتى من (إبيقوريا) و(مزدكيا)
و(فرويديا) و(بومبي)، ما زلت أذكر اللوحات الدينية
المعلقة في كلِّ مكان، التماثيل والمنحوتات بكل أشكالها،
كلها عاريةٌ مُوغلةٌ في الفطرة، عرفتها قبل أن أنطق أول
كلمةٍ، لم يدخر أبي وأمي جهدهما في تربيته وتوعيته،
كانوا في غاية التقوى، ساهم كل هذا في نشأتي ليجعلني
أكثر شكاً وارتياحاً! ما زلت أذكر اليوم الأول الذي ذهبْتُ
فيه للتعبد معهم، كنتُ طفلاً فلم يُسمح لي سوى بالنظر
والسمع، النظر إلى المتعبدين في الكرخانات والمواخير،
وسماع أصوات المنتشين والمنتشيات.

ألا يقول الكاهن بنفسه...

- "أمرنا الإله أن نتعبد له بما يُفرحنا ويُمَتِّعنا ويُرِيحنا، إنها حكمته الجليلة العظيمة لسعادة خلقه، عبادتنا كلها لذة ومنتعةً وتسليّةً، عبادتنا هي أحلى ما في هذه الدنيا، نشترك فيها رجالاً ونساءً وصولاً للغاية العظيمة واللذة الحريفة، هذا هو طقسنا المقدس، تداخل بالروح والجسد بين العابدين".

- "ولتعظيم شأن هذه العبادة، على المرأة أن تُغطي شعرها وحسب، ولا تكشفه سوى أثناء العبادة، فلتذكر العابدات التقيات دومًا هذا الفرض اللازم".

- "وعلى الرجال كذلك أن يحلقوا ذقونهم وشعر أجسادهم بالكامل، حتى يصير الطقس أكثر سلاسةً، هذا فرض آخر لا يجب أن ينساه العابد التقى".

كانت الكرخانة بجانب بيتنا تمامًا، فكان الذهاب إليها طقسًا يوميًا لوالديّ، أما الماخور الكبير فكاننا نزوره يومي الجمعة والأحد حيث يُقام التجمّع المقدس بين كلّ المتعبدین، نظرتُ كثيرًا حتى اتّسعت عيناى، كلّت أذناى جرّاء هتاف العابدين ورفيقاتهم، فى الكرخانة حيث

ينفردُ كل متعبِدٍ ومتعبدةٍ في غرفةٍ واحدةٍ، يتطلع إليهم الأطفال مثلي في نهمٍ، نريد أن نفعل مثلهم.. حتمًا نريد، لكن الدين هو الدين، لن يُسمحَ لنا بالاشتراك في الطقس المقدَّس سوى بعد النضج الكافي حين نقدر على إنتاج الماء الأبيض الطاهر، عندها نشربُ الخمر المقدَّس ليُعيننا على الانخراط في العبادة، أما قبل ذلك فمن يُحاول فعل هذا فمأواه جحيم الخطاة وبئس المصير، كنا جميعًا نستعر في وقتنا نتأمل العبادة، يفصلون بين الأطفال الذكور ومثيلاتهم الإناث تجنبًا لأي تجاوزٍ.

لم أفهم وقتها شيئًا!.. لكنني أدركتُ الحقيقة فيما بعد، كل الأجساد العارية المملخة بالألوان هي محض تشويقٍ وجذبٍ للعابدين والعبادات! حتى يُقبلوا على الطقس المقدَّس بكلِّ حبٍّ ولهفةٍ! يمنعون الأطفال عن فعله لكي تكون المرة الأولى لهم أمتع وأعظم ما يكون، تخيلوا تشويقًا لسنواتٍ طويلةٍ، هكذا يكونُ التشويق... هكذا تكون العبادة!

ويُنهي الكاهن خطبته موصياً:

- "والآن فلنبداً التَّعبُدَ مَعًا يا أبنائي، ولو ترك العابدُ منكم رفيقته دون اكتفاءٍ، أو فعلت هي ذلك، فليحتسب المتروك أجره منكم عند الإله، هكذا عبادة الأتقياء أيها الأحباء!"

بالنسبة لطفلٍ مثلي يُشاهد العبادة يوميًا.. اعتدتُ الأمرَ في النهاية، لم تعد تضاريسُ الأجساد في الشارع تُؤذيني، وصار الطقسُ المقدَّسُ مُملًا إلا لو حاول طرفاه التجديد الصعب في كلِّ مرةٍ، كان هناك شيءٌ آخر يجذبني كل الجذب وأنا طفلٌ، الفن.. الجمال.. الإبداع بكلِّ شكلٍ ولونٍ؛ إبداع الإله أو إبداع الإنسان، دخلتُ المدرسة طفلًا لا أفقه شيئًا، هناك تعلمتُ وأحببتُ الفن، الرسم والنحت والقراءة والكتابة، والتمثيلُ الذي لم أتقنه... لكنني أحببته وعشقتَه.

هناك عرفتُ أيضًا شيئًا بديعًا يُسمى (الصداقة)، حين قابلت (برو يهوه) للمرة الأولى، كان وسيماً مشهوراً بين الزملاء رغم اسمه الثقيل على اللسان، أنيق هو.. يُحسن اختيار ألوان الدهانات ويكثر زيارة (المراسم) حيث يرسم

أشكالاً وزخارف جذابةً على سائر جسده، يُجيد التمثيل بشدةٍ في مسرح المدرسة، تعرّفته إذ جاورني في مقعد الصفِّ، نفر مني بدايةً لكنه هام بي فيما بعد، راقه عقلي الراجح وعشقي للفنون، في حصّة الحساب والأشكالِ كنتُ الأول دائماً بينما احتل هو الصدارة في حصة التمثيل، وكنْتُ بخلافه منفرداً بنفسي في الغالب عن الآخرين... إلّا عنه، حتى تعجّب المدرّسون والرّفاق من هذه الصداقة غير المتكافئة، ما زال برو صديقي إلى اليوم.. إلى حدِّ ما.

تعرّفت أموراً كثيرةً مع برو، ما زلت أذكرُ اليوم الذي سألني فيه بغموضٍ وكان يدهنُ جسده بالأزرق الخفيف:

- "إيساف.. أتعلمُ كيف جننا لهذا العالم؟"

أجبتُه بتلقائيةٍ:

- "من بَطونِ أمهاتِنَا!"

- "يا أحمق.. أعني كيف تكبر بطون النساء هكذا

ويخلقنا فيها الإله؟"

- "حين يشاء الإله!"

- "لقد شاء لك الإله أن تكونَ أحمق الناس!"

كيف لي أن أدري ما قصده، النساء تلدُ لدينا في كلِّ وقتٍ حين تقدّرُ على ذلك، لكن لحظة.. لاحظت شيئاً ما:

- "أتقصد حين يرضى عنها الإله ويجعلها تتعبد له؟"

- "أخيراً... يا لعقلك الذي أتلفه الإحصاء، لكن السرّ ليس في العبادة نفسها، بل ما ينتج خلالها".

- "تعني لذة العبادة التي يمنحها لنا الرب؟"

- "بعيداً عن اللذة يا ذكي... أنا أقصد الشيء الملموس".

- "الماء؟.. الماء المقدس!"

هكذا عرفتُ كيف نُولد، ليس محض العيش بين رجلٍ وامرأةٍ في مكانٍ واحدٍ هو ما يُنتج الإنسان، كان أبي وأمي لا يتعبدان أبداً في البيت، إذن فمن هو أبي الحقيقي من كلِّ عناتيل الكرخانات! وعجبت من حالي... لا أعرفُ لي أباً!

وفي المدرسة عرفتُ شيئاً آخر قد يكون أجمل من الصداقة، شيئاً يُسمونه الحب، أحببتُ زميلتي (إيرما) كثيراً، ظنّ برو وغيره أن جسدها الناضج قد راقني لتكون رفيقتي في دور العبادة فيما بعد، لكنني في الحقيقة لم أفكر في هذا أبداً..

- "أومّال حبيتها ليه يا نجم؟!"

سأجيبك يا غاندي... أحببتها لوجهها الجميل، لروحها
الوثابة المرحة، ربما لشعرها الضافي المسترسل، لم أنظر
لباقى جسدها أبدًا... جسدها العاري طبعًا كما تعرفون،
بيد أن إيرما نفرت منى ومن الجميع، ظلت غارقةً في
النصوص المقدسة، تقرأها في كل وقتٍ ولا تُصدق أيًا منا.

قالوا إنها تسعى لتنفيذ وصية النبي (إيقور)، هي
جميلةٌ بالفعل وينقصها المحاولة فقط لتحوز لقب عاهرة
الإله وليس مجرد إحدى محظياتة كما نُسمي الجميلات،
لم أكن بالطبع من المحظيين الرجال؛ فلم أكن وسيماً أو
قويًا مفتول العضلات، لهذا لن أحظى بلقب العنتيل،
لكن وصية النبي الخاتم كانت واضحةً، من يفعل الطقس
المقدس مع القبيح ثوابه أعلى، هكذا قد ألتقي مع إيرما
يومًا ما في طقسٍ واحدٍ يجمعنا.

- "وهل انتهت قصتك مع إيرما إلى هذا الحد؟"

- "بالعكس يا محمد... لا أظنها بدأت بعد"

- ٦ -

- "إيرما... هل لي أن أكلمك؟!"

بالفعل.. قرّرت أن أكلمها، سأخرج من عزلتي وأواجهها
بمأربي، أنا أحبها، أظهر حبّ ممكنٍ و... أظهر حب؟!..
متأكد يا أنا؟ كنا في الصف عقب حصة الفيزيكا، أبغي
الظهور في أفضل حالاتي، دهنتُ جسدي بلونٍ فيضي
جذاب، فيما دهنتُ جسدها بالأبيض كالعادة، ردّت سُوالي
بهدوء:

- "أنت تُكلمني بالفعل.. أخبرني ماذا تُريد بالضبط؟"

تلجلجتُ في كلماتي، لم أكنُ أجيد الكلام مع الفتيان فما
بالك بالفتيات، لاحظتُ هي تلعثُمي واهتزازي فصرّحتُ
مباشرةً:

- "و بعد... ألا تكفيك نظراتك طيلة الليل والنهار..
أخبرني الآن ماذا تبغي وإلا فاذهب".

- "أنا أحبك!"

سمعتُ شهقةً سريعةً ثم..

- "كلاش!"

يُدها قاسيةً فعلاً على خدي! التفتَ نحوها كلُّ
التلاميذ.

- "كيف تجرؤ؟!"

أسرعتُ بالدفاع عن نفسي مُتَحَسِّسًا موضعَ صفعتها:

- "لم أخطئ في شيءٍ... قلتُ إنني أحبك فقط!"

- "لم تُخطئ... لم تُخطئ؟!!!!"

وتجمهر الطلبةُ حولنا، كنا في مركز الدائرة نتبادل
النظراتِ ينظر إلينا الجميعُ، على صوتٍ إيرما أكثر حتى
بلغ الصراخ:

- "يقول إنه لم يُخطئ، ذاك الفاجرُ يقول إنه يُحِبُّني

قبل سن البلوغ!!!"

سرتُ همهماتٍ غاضبةً من الجمعِ حولنا، يرشقونني
بنظراتهم المغتازة:

- "وقح"

- "قذر"

- "مُنحلُّ"

- "وضيع"

- "لماذا لا تطلب منها الخمر كذلك!"

- "أنا لم أقصد الطقس المقء..."

لكنني لم أكمل جملتي إذ عاجلتني اللكمة الأولى وتبعها
أخواتها في أنحاء وجهي... تطوَّع الكلُّ لتغيير المنكر بيديه.

- "يعني دي كانت أول علقه يا شقيق.. هع هع هع!"

أخرجني غاندي من خواطري... ابتسمنا جميعًا وذهب
محمد ليقضي حاجته ثم عاد:

- "أكمل... أكمل يا صديقي ما حدث مع إيرما"

لم يحدث يا محمد، فهمتني بشكلٍ خاطئٍ وظننت
مرامي جسدها، لكنني... كنتُ طفلًا، لم أطمح في أكثر من
ابتسامهٍ منها وتبادل الكلمات اللطيفة، نعم كنتُ طفلًا..
حتى حين.

فقد كبرتُ.. وزاد استعارُ الجسدِ واستفحل، لم يزددْ مع المعتاد من المناظر العارِية... بل العكس، تلك الفاجراتُ ممن توارين بالحُجب والقماش، نسميهن القماشِيَّات، يتجاهلن أوامرَ الدين والإله في الشوارع والطرقَات، كثيراتُ هن في الواقع، وفي الخيال أكثر... خيالُ الفن والفنانين، قماشهن الشفِيفُ الضاغط... يفعل بيَ الأفاعيل، حتى في وجود العاريات بالكامل؟! بالطبع.. وإلا ما استغلَّ الفنانون ذلك ليجذبونا! أخبرتكم أنني أعشقُ الفن، لكن الفن يغصُّ بهم بكل أنواعه، بدأت بالتمثيل، معي صديقي المحترف.

كما تعرفون.. المسارحُ المتنقلةُ هي وسيلةُ انتشار الفن الأولى، والعاهرة تعجُّ بها، تُقدم المسارح عروضًا لا تنتهي طيلة اليوم في برنامجٍ ثابتٍ، يُقام العرضُ بحيث يراه كلُّ

أهل المنزل من نافذةٍ مخصصةٍ له، نتعرّف عبره الثقافات الأخرى، نتعلم منه الكثير، نرى الشخصية المشهورة يستضيفها المسرحُ ويُحدثها ممثلٌ مخصّصٌ يُسمونه المحاور، والأهم من هذا، نرى الرواياتِ المؤلفةً ممثلةً أمامنا، يُعد البَنَاءون والحرفيون كل شيء لتبدو الروايةُ حقيقيةً، صورٌ مرسومةٌ بدقةٍ في خلفية القصة.. مؤثراتٌ صوتيةٌ بحناجر ممثلين صوتيين، يحتشدُ فنُّ التأليف والرسم والتمثيل والموسيقى المعزوفة في مزيجٍ رائعٍ على خشبة المسرح، يشرف على هذا كله الناقل الذي سمّوه هكذا لأنه ينقلُ لنا رؤيته كاملةً عبر روايته الممسرحة.

كان المسرحُ جزءًا لا يتجزأً من يوم كل عائلة، ويُسمح لنا فيه بالنظر عبر المقراب لنقتربَ من الممثل البعيد، عشتُ فيه مع الممثلين والأهم... الممثلات، اقتربت منهم ورأيت تفاصيلهم الناضجة عبر مقرابي، ويزدادُ لهيبُ دواخلي يومًا بعد يومٍ، كانت العروضُ المخصصةُ للكبار هي التي تجذبُ انتباهي، ففيها أرى الأجساد خلف القماش أكثر.. أكثر إثارةً بالطبع، هاته الفاجرات الوضيعات.

لم يؤثر فيَّ شيءٌ كما فعل المسرح، بممثلاته وتضاريسهن، بعروض الكبار الخاطفة لعقلي الغضُّ، هكذا صارت تفاصيلُ الأجساد الناعمة حولي تجذبني أكثر وأكثر في

الشارع، لم أعد طفلاً أنتظرُ كلمة حبٍّ من حبيتي، بل صار كل همِّي هو ذاك اللحم اللدن البضُّ، وأحمى برو صديقي من نار جذوتي، يحكي لي خفايا عمله مع الممثلات، دعاني يوماً لحضور عرضٍ مسرحيٍّ في مسرح القاهرة العظيم المُسمى (مسرح عُهر)، وفيه يحضُرُ العرضُ آلافُ المشاهدين مع المُقرب، كان العرضُ بعنوان: (قذارة روح).

وفيه كانت البطلَةُ مُثلها فتاةٌ شديدةُ الإغراء بقماشٍ ثقيلٍ يُطلقون عليه اسم (ملايس)، يحكي العرضُ كيف عاشت تلك البطلَةُ تُخالف الإله وتُغطي أنحاء جسدها، كيف دعا هذا الفتى الصغير- وقام برو بدوره- الذي لم يشب عن الطوق بعد أن يميل إليها ويضرب بالنصوص المقدسة عرض الحائط، حتى كاد أن يفعل معها الطقس المُقدس، لكنها في النهاية نهته وخلعت (ملايسها) وعادت لتُمارس العبادة الحقة في الكرخانات حتى صارَ لها كرخانة مُخصصة لها يقصدها العابدون من أقاصي البلدان، ونالت لقب القاهرة عن جدارةٍ واستحقاقٍ .. تصفيقٍ.. تصفيقٍ حاد يصم الأذان من جهة المشاهدين، شخص واحد فقط لم تتحرك يداه قيد أنملة ليصفق.

- "وإيرما حضرت معاك العرض وبوستها ولا لأ يا موكوس؟"

سألني غاندي ساخرًا:

لم يحدث يا غاندي... فالواقع أن ما حدث معها لم يدُر
ببالي قط.

- "طب ما تقول يا عم... مستني إيه؟"

سأخبرك أولاً يا غاندي عن حالي خلال السنين التالية في مرحلة الصبا، تُذكي فيها الفنونُ نارَ شهواتي الدفينة المحاصرة بسورِ اسمه النصوص المُقدسة، لم أفكر أبداً في تخطيها، كنتُ أخشى عاقبة الذنوب وما بعدها، فيوماً ما سيضعف جسدي ويرق عظمي لأودع الدنيا، أو يُصيني المرض فجأةً ليزهق روحي، وحينها لن ألقى سوى العذاب وحده، حين يأتيني المميتون ليأخذوني.

هكذا الموتُ في العاهرة.. يكون بأيدي المميتين، يأتيون في أيِّ وقت، مهمتهم دفنُ الموتى، يرتدون ريشاً أسود ويضعون أقنعةً بمناقيرٍ طويلةٍ كالغربان، هم من يُحدِّدون من يموت، كبار السن أول المُعرِّضين لهم، وحين يمرض أحدهم يأتيه المميتون ويُقررون أبقى إلى أن يشفى أو يموت فوراً بأيديهم، وقد يختارون صغار السن ليموتوا،

يُسمونهم المحظوظين، لأنهم لن يشهدوا الأمراض المؤلمة
أو ضعف الشيخوخة، أو موت أحبابهم قبلهم.

كان منظرُ المميتين دومًا أمام البيوت لرصد الموق
يُفزعني، أنا أخاف الموت حقًا، وكثيرًا ما تساءلت: كيف
يكون الموت على هوى بشرٍ يموتون أيضًا؟! كيف يرضى
الإله بهذا في دينه؟ لكنني لم أصدح بهذا التساؤل سوى
في عقلي!

أعرفُ أنني لستُ مُغامرًا بطبعي.. أخشى محاربة
الأشخاص قبل النصوص، لذا لن أعلن أفكارى لمرة، ولن
أتعجّل في تنفيذ الطقس، انتظرت فرجًا قريبًا بنضجي،
حتى أنفذ نصيحة نبينا الخاتم (عزازيل) بأن كل قطرة
من الماء المقدس في التعبد يُقابلها سبعون ألف مجنحٍ
يستغفرون لصاحب الماء.

وظللتُ على شوقي، حتى روى ماى فخذي يومًا
بينما أحلمُ بنفسي بين أحضان إيرما الجميلة، صحوْتُ
لأجدَ القطُّ هناك يغفو بفرائه الوثير، أخبرتُ أمي صباح
ذلك اليوم فكانت فرحتُها عظيمةً، احتضنتني بشدةٍ
وبكت، أخبرتني أنني أخيراً سأصيرُ عابداً تقيًا، وقد أسعى
لأكون عنتيلاً باجتهادي دون الوسامة! من الآن فصاعدًا
لن يخرجَ ماى إلا في العبادة، أخذتني في اعتزازٍ للماخور
ليتم تعميدي مع بالغى الشرف أمثالي، هذه مرّتنا الأولى
وسيحضرها الجميع.

جميعُ الكهنةِ والعناتيلُ الأتقياءُ ينتظرون ليشهدوا
أداءنا المُشرف بعد سنواتٍ من النظر والتمعن و- الأهم-
الاشتياق، أجسادنا ناعمةٌ حليقةٌ بالكامل تلمع كجلود
العدارى كما علّمنا النبي الخاتم، من الأعلى يتطلعُ إلينا

الأطفال جائعين للحظة اللقاء كما كنا نفعل سابقًا، وقفنا نحن الشباب صفاً، وبعيداً أمام كل شاب فتاته الناضجة القادمة على استقبال الماء، بلا دهاناتٍ على جسدها وإنما الجلد الطبيعي اللامع، يُغطي شَعرها الحجابُ الذي ستنزعه لأول مرة، ويُداري وجهها لثامٌ ليزيحه الفتى منا فيرى فتاته ويسعد بها.

قبل هذا يمرُّ الكاهنُ الأعظمُ ليمنحنا بركته ويُقدم لنا شربةَ الخمر الأولى، يُناول الشباب أوراقًا مصفرةً تحتوي النشيد الذي تاق كلُّ منا لمعرفة ما به ولقوله أمام محظيته... لو كانت محظيةً، النشيدُ البديعُ ذو الكلمات العذبة التي تُقال للفتاة فتُدِير رَأْسَهَا وتُلقي نَفْسَهَا فِي أَحْضَانِكَ فورًا ساعيةً للتقرب منك، الشوقُ يحتشدُ، يكادُ يفيضُ منا ليُغرق الماخور، عثتم هذه اللحظات حتمًا يا محمد ويا غاندي...

- "أومَّال؟!... هوَّ فيه أحلى من كده... قول قول
وسمَّعني... أنت مؤدب كده ليه؟!"

صبرًا يا غاندي، فأنت لم ترَ الأدب بعد، ناولني الكاهن وورقتي، كنت مشغولًا عنه بالنظر لفتاتي من بعيدٍ، أمَّني نفسي باللحظات القادمة، لكنه أعطانيها في تفهمٍ، لا شك أن كلَّ الشباب مثلي الآن، وكانوا وسيظلون مثلي، حين

انتهى الكاهنُ أمر بأن يقتربَ كل فتاةٍ وفتى.. وأن يبدأ
الرجال بالإنشاد، بدأتُ أنشدُ بكلِّ ما فيَّ من مشاعر..
نشيد الإرشاد، الذي يُرشد العابدين والعبادات..
وأنشدتُ..

يا لجمال قدميك أيا عاهرة الإله!
كالمرمرِ والعقيقِ الأحمر.. غاب عقلي!
لكم أحسدُ القماشة على وجهك.
والهواء يُحيط بك.. أغبطه وأرجوه.
ما أجملك، وما أحلاك أيتها الحبيبة!
كفلقةِ رمانة خدك تحت قماشتك.
حبيبتى بيضاء سمراء أو قمحية.
يكفيني الملمسُ الواحدُ والمكمن ذاته.
لا أحلى من عناق أجزائك.
لا لذة تفوقُ ما أنتظره منك.
كلك جميلٌ أيا عاهرتي.
ليس فيك عيبة.
لم يخلق شيء فيك.

كما خُلِق لي وحدي.
لم أعرف حياةً ولن أعرفها.
قبل أن ألتقيك أيًا حياتي.
من أجلك انتظرتُ السنين.
حرمتُ نفسي.
أشحن همّتي وأقوي عزمي.
وأزيد لك شوقي وولهي.
سأجعلك سعيدةً كلّ السعد.
فيك دُبتُ وذاب كآسي.
فبات كآسي أنت ومأكلي.

وأنشدتُ المزيدَ والمزيدَ، تغزّلت صراحةً في عاهرتي
ومفاتها بكلماتٍ واضحةٍ تصفُ كلّ جزءٍ منها، وفعلت
بي الكلماتُ ما فعلتُ، بلغت الشعلة أوجهاً، بلغ الخمرُ
مرامه، أكادُ أفيضُ قبل اللقاء... فلنلتقي.. فلنلتقي!، وانتهى
النشيدُ، وظل الشباب كالوتر المشدود على سهمه، لمسة
واحدة ويطير بلا عودةٍ و.. و.. أشار الكاهن، وهرع كلُّ
بالغٍ لبالغته، لينالوا الشرف واللذة، أزاح كل البالغين اللثامَ

والحجابَ وانخرطوا فيما انتظروه، أنا أيضًا أزحْتُ لثامها
و... وشُلت يدي قبل لساني، وطار صوابي قبل كلماتي..

- "كانت... كانت هي!"

- "بلى يا محمد... بعينها.. إيما.. إيما العاهرة"

طالت اللحظات.. تجري بيني وبينها، يهتزُّ فمي
وتتسع عيني، أهدق فيها وألاحظ أثر الزمان عليها، هي
الآن أشهى من ذي قبل، لكنني شعرتُ بألف قيدٍ يُكبلني
عنها، تنداحُ أصواتُ العابدين والعبادات من حولي في
انتشاءٍ، إيرما مصدومةٌ هي الأخرى، نظرتُ لي طويلاً دون
تعبيرٍ، لسانُ حالها ينعى حظها ويغتاظ لحسن حظي،
تتنهد في استسلامٍ وتُشير لنفسها.. لكنني لا أتحرك، استثقلتُ
خُمودي وبلادتي، أمسكتُ بيدي، فنزعتها كأن يدها ذبَّان
العقرب، ينفد صبرها.. تقول باغراءٍ مُقتضبٍ:

- "هيا.. افعَل مثلهم!"

- "....."

النظرةُ المبهوتةُ في عيني، نظرةُ بريءٍ يجرُّونه للمقصلة.

- "تحرك يا هذا!"

- "لا"

تتوحش إيرما وتجذبني نحوها.

- "افعل هذا الآن!"

- "لن أفعل"

تتشبث بي في غلٍ.. أذفَعها وأذهب، أترك الماخور كله، أترك الكاهن والعنايل وكل من جاء يُشاهد، يرمقونني كأنني معجزة خارقة للعادة، حتى العبّاد تابعونني أثناء طقسهم، غطت الدهشة كل شيء، الوحيدة التي كادت تحرقني بنظراتها... تجزُّ على أسنانها بكل غيظ الدنيا، هي إيرما نفسها، أفسدت طقسها المقدس الأول، لكني رأيتها ترمقني بتشفٍّ بين أحضان أول من وصل إليها من المتطوعين الأتقياء، لماذا فعلت هذا... كنت أحبها!... فلمَ لم أفعل؟!

لم يهتم القوم بي، بالتأكيد قال لهم الكاهن في حكمة:

- "من بين كل مائة طفل... يُولد أحدهم خجولاً أو

أبله أكثر من اللازم!"

أزعمتُ ألا أظاً دورَ العبادة بقدميَّ بعد هذا الموقف،
سنواتٌ عديدةٌ مرّت بالفعل، كنتُ أتحرقُ فيها شوقاً
للتعبد، نيران الجسد تُلهبني، تنفخُ فيها المغرياتُ بكلِّ
أصنافها، لماذا لم أفعل وأتعبد؟ ينبغي عليّ فعل هذا قبل
أن أنفجر ولكن... شيءٌ ما تهشّم بداخلي منذ تلك المرة،
أي شيء هذا وهل يُمكن إصلاحه؟

كيف السبيلُ إلى وقف الوغى وإطفاء اللهب؟ الأجسادُ
حولي في كل مكانٍ، عاريةٌ في الشارع.. مُغرية كل الإغراء..
خاليةٌ من أي سترٍ، إلا الرؤوس المُغطاة من أجل العبادة!
الكرخانة تُناديني بأصوات العباد المنتشية الراضية، والأسوأ
من هذا كله، أجساد تغطت بقماشٍ خفيفٍ، يُثير الدواخل
ولا يدعُ لها منفذاً، أراها في المسارح، وكثيراً في الطرقات،
تبّاً لهن وتبّاً لإيرما، ماذا أنا بفاعلٍ الآن؟

وشكوتُ لصديقي سوء أحوالي، ينظر إليّ في ضجرٍ،
يُعاتبني ساخراً، ويشير للأجساد حولنا ويُخبرني أنه أفضل
مني، ما من جسدٍ يروقه إلا ويتبع صاحبه حتى دور
عبادتها و(يُحبها) هناك، استغلّ الدين لمصلحتك يا أحمق،
الدين تدخين... هذا يُثبت كلامك نوعاً يا محمد.

لم أستمع لصديقي، لكنني وجدتُ نفسي يوماً أمضي إلى
الكرخانة بلا واعزٍ، كنتُ أعرفُ أنني لن أقربَ امرأةً، لكنني

أريدُ شيئاً آخر، ذهبْتُ في ركنٍ قَصِي، معي مقرابي، أُحدِّق
في العابدين والعبادات، أتأمل كل حركةٍ وخلجةٍ.. أصيخ
السمعَ لكلِّ آهةٍ، كأنني محرومٌ من كل هذا! كان لا بد
عندها أن أفيضَ بما داخلي، أصلُ لذروتي جرأء المشاهدة.

- "تقصد أنك استعضت عن الطقس المقدَّس بالعادة
المقدسة؟"

- "بالضبط.. رغم أنها مسموحةٌ لنا في السَّفر فقط،
حين لا نستطيعُ التبعُد في الكرخانات ولا نجد
النساء".

- "ودي تبقى عيشة يا جدع؟!"

- "صدقتَ يا غاندي.. هي تقليدٌ أخرق، لكنه كان
خيارِي الوحيد"

- "وماذا يُجبرك على هذا يا أحمد.. معذرة يا إيساف!"

- "لا بأس يا محمد.. قد يكون محض ادِّعاء.. لكنني..
أحببتُ"

- "ها.. أحببتَ؟!.. على طريقتك!"

- "بالفعل.. على طريقتي"

أزهد به في الأجساد ومكوناتها، أي شيء هذا؟ يُجيبني برو
الذي بلغ صبره مداه:

- "فلتغنك الأشكال الهندسيّة القاسية الحواف عن
الأجساد الملساء التي لن تعرف حلاوتها ما لم
تُجربها!"

عنده حق، لقد تقدّمت في دراستي وأكملتها حتى
تخصّصت في الحيل النافعة، الآن أطوّع معرفتي في آلاتٍ
ومعداتٍ تُحقق منفعةً جليلاً للإنسان، قناديل لا تنطفئ
في الرياح العاصفة، آلاتٌ لرفع الماء تُسمّيها الشادوف، ميزان
لقياس ما تحويه الأجساد من شحمٍ ولحمٍ، أبوابٌ تفتح
بشكلٍ آلي عن طريق الحبال، والكثير من الحيل المدهشة.
كنتُ أتصبر كذلك بالفن الرائع المهجور من الجمهور،
قراءة الروايات في أوراقها قبل تمثيلها، بل وجدتُ الكثير
من القصص التي لا يُمكن لأي ناقلٍ أن يُنفذها على مسرحه،
هناك الخيال الجميل الذي لا يُهزم، صعّدت في الروايات
عبر النجوم وقابلت مخلوقاتٍ عجيبةً تحيا هناك، هبطتُ
في أعماق البحار لألقى السّمك يتكلم ويحيا كالإنسان،
تحدّثت مع عظماء الأرض الذين ذهبوا وتركونا، عرفتُ
ماذا أحبُّوا وكرهوا وكيف فكّروا.

رأيتُ ما لم يره برو ولن يراه، استقرَّ هو في التمثيل
وبداً يهجرتني، لم أعد أراه كثيراً، صار ينساني كما ينسى كيس
أدواته، منشغلاً عني بعروضه المملّنة بالقماش، يُحبها أكثر
من كلّ مشاهديه، يحسدونه كل الحسد إذ يُجالس هاته
الفانات المغريات، لديه شلة أصحاب آخرين لا يفصلُ
عنهم، أين صداقتنا التي خلبت لبَّ الجميع؟... لا أدري،
حاولتُ دوماً لمَّ شملنا.. بلا فائدة.

وبعد قطيعةٍ دامت خمسة أشهر، بلا زيارةٍ واحدةٍ
أو رسالةٍ بالحمام الزاجل حتى، وجدتُ برو يزورني في
أيام امتحانات العام، لم يدع لي فرصة لومه أو تأنيبه، فهو
يعرفُ جيداً أنني لم أقصّر معه، لكنه عاجلني بسؤالٍ لم
أتوقعه على الإطلاق في هذه اللحظة:

- "ذكرني بقانون مساحة المربع يا إيساف!"

هل كنتُ محض مخدوع في برو؟ صديقي الأقرب
يتجاهلني متذرعاً بأعماله ويتهرب مني بلا سبب؟ وحين
يزورني يقصدُ مصلحته مباشرةً، أصابني ما فعله بصدمةٍ
شرعيةٍ بالغةٍ، ولم أدِر بماذا أشعر تجاهه، زاد من منغصات

حياتي واحدًا، غير إنني تناسيتُ واكتفيتُ بالعودة لكتابي
حاسبًا أنه خير صديقٍ.

لكن فن الكتابة طالته ذاتُ اليد التي طالت غيره، إذ
حفل بالقماشيات وتفنن في وصفهم، كان الكتابُ محض
عرضٍ مسرحي مغرٍ، وجبةٌ دسمةٌ لكلِّ متعبٍ ورعٍ، محض
خمرٍ في صورة ورقٍ، يؤهله لعبادة أكثر اشتياقًا، لكنني لم
أكن منهم، لهذا كنتُ أتخير قراءاتي بصعوبةٍ، إذ يخلو أي
عملٍ جيدٍ من هذه النغمة، وعدتُ وحيدًا لا أجدُ مَنْ
يُشابهني في فني المفضل، احتضنتُ الدراسةَ راضيًا قانعًا
بحبي لها، يكفيني أن لديَّ شيئًا أحبه، وأتسلى مع قطي..
فروهُ بلون المشمش الطازج، تكتظُّ عُرفتي بالكتب يمرحُ
بينها القط في سعادةٍ.

لكن الدراسةَ الصعبةَ المرهقة، لم تجلب لي السلوى
فقط، بل عرفتني بأجمل ما عرفتُ حتى الآن، بأجمل
سلوى ونجوى، بأحلى ما يُمكن رؤيته ونسيان الدنيا كلها
معه، كانت جميلةً.. جميلةً بحقٍ.

- "قصدك حبيبتك الجديدة يا نمس؟"

أجمل حبيبة في تاريخ الحبيبات، لو أن نظراتي نارًا
لاحترقَتْ حبيبتي من طول نظري، غير أنني كنت لأحترق
بدلًا عنها، نظرتُ ونظرتُ ونظرتُ حتى شكَّت عيني، لم

أفعل شيئاً سوى النظر لهذه الأعجوبة، كنتُ أسبِّح الإله
الذي سوّأها.

- "كلنا نقول هذا ونفعله... وما اسمها هذه المرة؟"

اسمها وحده حكاية... كان يروقني... يُناسبني، كأنها
خُلِق لي.. فأنا (إيساف)... وهي (نائلة)، وتمنيتُ أن نصبح
معاً جديرين باسمينا.

دعوني أصف لكم أجمل ما رأْتُ عيني، كستنائية
الشَّعر تعقسه في غديرٍ طويلةٍ خلابةٍ.. فهي لا تُغطِّيه
للأسف، بيضاء البشرة ناصعتها، في وجهها ألقٌ دائمٌ،
كأنه نور قنديل لا ينطفئ، عيناها بلون قِطي المشمشي،
فاتحان ترقان في الشمس، ينتشرُ النمشُ الخفيفُ أسفل
عينها، لا يظهر إلا عند الاقتراب منها، جسدها... ماذا عن
جسدها؟! لا أحسبني أعرفه.. لم أنظر صوبه كثيرًا.. لم يكن
يعينني في شيءٍ.

لم تكن محض جميلة، بل بارعة جدًّا في الحيل النافعة
وخاصة التي نستخدم فيها الخيوط، تسبقُ زملاءها جميعًا
بمن فيهم أنا، أحببتها كثيرًا، لم أرَ غيرها حولي، ملكتُ كل
عالمي وملاَّت لي كوني بأجمل المشاعر، خبرة لم أجربها على
الإطلاق من قبلها، باتت منغصاتُ الحياة بعيدًا بعيدًا،

هجرت الكرخانات والمواخير... اعتزلتُ النظر في الشارع،
ودَّعت المسارح وما يجذبني إليها، كل شيء انتهى من
أجلها، من أجل (نائلة).

- "وهي حبتك أوي كده؟!"

لا يا غاندي.. فأنا لم أكلّمها بعد...

- "كل ده ولسه مكلمتهاش يا أخي.. ده إنت نيلة.. ليه
طيب؟"

لأنها... لأنها قماشية يا عزيزي غاندي.

- "آههااااا... عشان كده مبصتش على جسمها... وأنا
اللي كنت مستغرب!"

قماشية كانت.. بل هي من ذوات الملابس، عرفتُ
أنها لا تقربُ الكرخانات كذلك، فاجرة!... لا تستحق شرف
اسمها، نائلة التي ولدت ابنها من الإله ذاته حين تجسّد
ومارسا الطقس معًا فكانت أعظم لذة ونتج عنها النبي
(إبيقور)، أنا أيضًا لا أستحق شرف اسمي، إيساف النبي
الذي رفضت زوجة سيده أن يُشاركها في الطقس فأغلق
له الإله الأبواب حتى أدركت مكانته وعظمة العبادة،

مع أنه كان أقبح العباد، وفيما بعد صار إيساف ونائلة يتعبدان معًا، أيَّ إيمان.. أية عَظْمَة؟! أين نحن من كل هذا؟.

حين رأيتُ نائلة ظننتُ أنها سبيلي للرضا عن نفسي فيما يخصُّ العبادة، عقدتي الأكبر، راقتني بوجهها الأَخَّاذ، لكنني صُدمت من جسدها المخفي تحت الملابس، فكرتُ أن أحاول معها من جديدٍ في الكرخانة، اتضح لي أنها مثلي... بتوَلُّ بعد، لماذا لا نتوب معًا إذن؟! نحن مثقلان بالخطايا والنفور من الحق، لنعد إليه معًا.. نسعى بكل قوتنا للصواب، كانت لديَّ خطيئتها نفسها، سأحدثها بكل صراحةٍ... أوحشتني سلامة نفسي حقًا وسلامة جسدي، لا بد أنها ستفهمني.. ستعودُ لرُشدِها معي.

الكل يُحبها مثلي، لأنها جميلةٌ في أعينهم دون شك، لكنهم يمقتونها لاختلافها، أنا لم أفعل، أحببتها نفس حبي لإيرما وزدت عليه، لأنني الآن أعني حقيقة مشاعري أكثر... أريد العيش معها وأن نتشارك تربية أبناء لها، أريدها لي وحدي بخلاف العبادة، أحب أن أبدأ معها طقسي المقدس كحبيبة ولكن... كيف وكلانا نغصُّ بالخطيئة.. تتساقط منا ويراهما الناسُ في كل وقتٍ؟

سأكلهما غدًا ويكون ما يكون، بدأت أشعرُ بضيقها
جرّاء نظراتي، فأنا لم أفعل سوى النظر والتأمل! بل زدتُ
فيهما كأنني أعد بحثًا عن مخلوقةٍ اسمها (نائلة هُبل)

في اليوم التالي وعقب انتهاء المحاضرة، انتظرتها حتى
خرجت من حانوت خاص بأدوات الدراسة:

- "نائلة... كيف حالك؟"

تلتفت برزانةٍ.. ترمقني بشكٍّ:

- "بخير... ما الأمر؟.. هل - حضرتك - تعرفني؟"

- "بالطبع.. أنا إيساف.. زميلك في دراسة الحيل

النافعة.. ألم تلحظيني من قبل؟"

تملصت مني بلباقةٍ:

- "لا للأسف... تشرّفت بمعرفتك.. هل من شيء؟"

- "ثمة اعترافٌ أريد البوح به... لكن.. أرجو أن

تفهميني.. أعرفُ أنك ستفهميني"

- "اعتراف؟!.. لا أفهم شيئًا... لكن لتُسرّع أرجوك فلدنيّ

عملٌ كثير"

- "أنا أراك منذ مدة... منذ بدأنا الدراسة معًا... لم أستطع أن أحوّل عيني إلى فتاةٍ أخرى غيرك و.."
تصمت للحظة.. تقول كأنها تسمع شيئاً عابراً اعتادت عليه :

- "ثم...؟"

- "أنا.. أنا أحبك... أنا أعشقتك!"

ينفجرُ غاندي في الضحك المماجن حتى يخشى محمد أن يسمعه الحراس، محمد نفسه كان يضحك حتى صارت عيناه قوسين ضاحكين بدورهما، كنتُ في غفلةٍ عنهما، أسترجعُ وجه نائلة الذي اقتربت منه يومها!

- "يخرب سنينك ياض.. بتكرر نفس الغلطة يا ناصح"

قالها غاندي بصعوبةٍ بين ضحكاته العصبية.

- "صراحةً.. عنده حق يا إيساف، لا يعودن أحدكم للعبادة الباردة مرتين!"

- "حديث نبوي جميل يا محمد.. لكنكم لم تعرفا بعد بماذا أجابتنني!"

توقف كلاهما عن الضحك، نظرا لبعضهما ثم لي:

- "نعم... قصدك أنها مرقتكش بالقلم تاني"

- "لم تفعل!"

- "يا راجل... أومال قالتلك إيه؟"

- "قالت لي.. ولم لا؟!"

- ١٣ -

ردَّت نائلة في كياسة:

- "ولِمَ لا.."

- "....تعين أنك موافقة؟"

- "موافقة؟!.. على ماذا؟!!"

- "على أن تحبيني كما أحبك!"

ضحكت بجزلٍ جميلٍ، وقالت:

- "احببني كما تشاء.. لكن لا تُجبرني على ذلك!.. ولا

تُضايقني يومًا"

- "لا أجبرك؟.. ولكن..."

- "هل انتهيت.. هل أذهب؟!"

- "مهلاً.. هناك شيء آخر"

ببرودٍ رَدَّتْ:

- "آسفة.. لا أصادق الفتيان"

- "لا أعني هذا.. ماذا عن الكرخانة و..."

هنا هتفتُ في انفعالٍ:

- "اخرس.. لا تُضف كلمةً أخرى!"

- "و لكن أنا.."

- "نَبًّا لك ولحبك.. اذهب!"

لا أفهم شيئاً، لا تحبني.. لا تُصادقني، ولا تتعبد مثلي؟! ماذا يدورُ في رأسك يا نائلة يا بنت هُبل؟ ولماذا لا تبغين التُّقى كما أبغاه؟ أية ثورة انتابتك حين جئت بسيرة دار الإله الحق؟ نائلة.. أنا مثلك وأنتِ مثلي، نفرنا مما نشأنا عليه ولكن.. إلى متى؟ إلى متى نظل هكذا بعيدين عن التقاة... بعيدين عن المجتمع؟ صدَّقيني.. سئمتُ وتعبتُ ومرضتُ.

فعلاً مرضت، تغيبت عن الدروس، أهملتُ فيها، وانتكست، عدتُ بشدةٍ للكرخانات.. أشاهد.. أنفعل... أفيض في لحظةٍ وحسب، كنتُ أتصبر بكل هذا، يُنسيني

مرارة ردِّ فعلها، كدت أتردِّي للطقس المُقدس، لكنني أحجمتُ في آخر لحظةٍ، حبها يملكني.. يتمكن مني، هل أتحامق؟... أنا لا أريد سواها، وأريد أن نكون معًا والمجتمع.. لن أتعبد مع سواك، لأنني أحبك.. لكن لا تكوني عكس فطرتك.. وأنا مثلك، لا تكوني محتشمةً مذنبَةً هكذا بملابسك، وأنا ببعدي عن العبادة وتشبُّهي بالعبادين.

ولاحظتُ نائلة ما ألمَّ بي، لاحظتُ وجومي وشرودي، لا نظر لدرسٍ ولا سماع لنصٍّ، أهدق في الفراغ هائمًا وحسب، لم أعد أيمم نظري ناحيتها حتى، وإذا لقيتها في مجال بصري مصادفة أشيح بوجهي عنها في أقل من لحظةٍ، بقيتُ على هذه الحال.. أحضر يومًا وأغيب أيامًا، حتى جاء يومٌ.. وجدتها تقتربُ مني وتقول:

- "أخيرًا أتيتَ؟.. أرغبُ في التحدث معك... لو سمحت!"

جلسنا في استراحة الطلبة، تنظرُ نائلة لأسفل كأنها تتحاشى رؤيتي، أنا أيضًا تحاشيتُ بصعوبةٍ نظرات

الاشمئزاز والضييق من العابرين إذ يروني أجالس فاجرةً
خاطئةً ذات ملابس كئالة.

- "لم أعرف أنك تعلقت بي لهذا الحدِّ بمحض نظراتٍ
ولهاء يا إيساف، انتابك تغيُّر عظيم، لا تهمني في
شيء صدَّقني.. فقط أريد أن أعرف.."
ثم رفعت عينيها نحوي.. أردفت:

- "ماذا تريد مني؟... كيف تراني؟... أخبرني بكلِّ
صراحةٍ يا إيساف... أرجوك!"

أصمتُ قليلاً... أحتفظُ بصدى اسمي الذي نطقته
مرتين.. وأتأمل ملامحها الأسطورية عن قرب، النمش
القليل البديع، ملحمة من الفن والإبداع الإلهي، لكن
فلأقل كل ما بداخلي، فلأفعل طالما سنحت لي الفرصة:
- "أخبرتكَ أنني أحببتكِ.. ولكن.."

أصمتُ للحظةٍ.. أتجهز لما سأقول، أفلت زمام الكلام:

- "لماذا تفعلين هذا؟! لِمَ تعارضين إلهك ودينك؟!
تُخالفين المجتمع كله وتمضين وحدك مذمومةً
مكروهةً، تتجنين دور العبادة وتنفرين من التقيّات؟"
أتهد وأتأملها بحزن، قلتُ لها أخيراً:

- ١٤ -

تحسستُ ذقني، نامية قليلاً، خلاف أمر النبي عزازيل!
الحلق فُرض من الإله بالطبع، كنتُ أتركها أنا الآخر.. لا
أحلقها كما ينبغي.. أغلب الرجال في العاهرة لا يحلقونها
مثلي و...

- "أنا أشفق عليك حقاً"

قالتها في صدقٍ، ثم أردفت:

- "أنت تحبني.. أم تحب مجتمعتك؟!"

- "أحب.. أحب الدين... وأحبك"

- "لو كنت تحب الدين.. لحلقت لحيتك وشعر جسدك،

ولقصدت الكرخانات.. لكنك لم تفعل... مثلي"

- "ماذا تقولين؟.. أنا لستُ مثلك ولا أتخذ الملابس!"

- "لأنك جبان.. لا تندهش هكذا، أنت بالفعل أجبن من رأيتُ في حياتي، لا بد أنك تحب ترك شعرك هكذا لأنه يشعرك برجولتك واختلافك عن النساء، كرهت التعبد وهجرته، ربما تفكر في ارتداء الملابس مثلي عما قريب"

- "اخرسي.. أنت.. أنت فاجرة!"

- "ما الفجر والعهر بالضبط يا صانع الحيل؟ أين الحق... أين الدين؟! هل هو حقًا ما وُلدنا عليه؟ صدّقني.. ملابسني هكذا لا تُرضيني.. أريدها أثقل! لكنني على درجةٍ من الجبن أنا الأخرى، أخبرني أنت: من أمرنا بالسير عراةً؟"

- "ال... الإله بالطبع"

- "وأنا إلهي أمرني ألا أفعل هذا... ولكلّ منا إلهه، لكل منا كاهنه"

- "نائلة.. أرجوك كُفي عن هذا.. كوني معي"

- "لست معك، ولا أودُّ أن أكون... أنت لا تُحبني، أنت تُحب صنعة الإله في وجهي، وتُحب تقاليد مجتمعك، دعني وشأني، لن أتغير وأصير تقية كما تريدني، لن أسير عاريةً في الشارع ملطخةً جسدي

بدهانٍ سخيِّفٍ وأغطي شَعرِي وحسب، أما أنتِ
فابقِ على ما أنتِ عليه.. مذبذب.. مغبون، المشكلة
فيكِ أنتِ... وحدكِ، أنا بلا مشاكل... اذهب لحالك!"

- "انتظري.. لا تذهبي و..."

وذهبتُ، وذهبتُ لحالي كاسفَ البال أسوأ من ذي
قبل، قاطعتُ الدراسة نهائياً، حلقتُ شعري وذقني بشدة
في البداية، ثم تركته ينمو بلا اهتمامٍ، حقاً ماذا أريد؟ مَنْ
أنا.. وأين الحق؟ أي الألوان أفضل... الأزرق خلاب.. الأحمر
بديع.. الأصفر... جميل.

نائلة... أين أنتِ؟ هل جئتِ لتعذبيني وحسب؟ أحبك
ولكن... هل أدع ديني من أجلك؟ أحب إطالة الشعر..
كل الرجال تُطيل شعرها في العاهرة، لكن ليس كل النساء
يكتسبن بالملابس مثلك، ما معنى هذا؟ ألومك لأنك
تُخالفين الدين.. أم تُخالفين المجتمع؟ ومَنْ فينا الصحيح..
نائلة، ذهبت اليوم فقط لأراك.. لألتمس شذاك.. لأرى
عينيك، تنضحان بأجمل لون.. أجمل من الأحمر والأصفر
والأزرق.. لون المشمش.

هل أحببتك فقط لجمالك؟ ولكن.. لماذا يُحب المرء
أصلاً؟ لا أفهم.. لا أعي، ها أنذا أراكِ خلسة.. أهربُ حين
أشعرُ بنظراتك ترصدني، أعودُ.. جائعًا إلى عينيك.. لون
المشمس هذا، وحين عدتُ إلى منزلي، وجدتهم يقفون
هناك أمام الباب.. بأوشحتهم السوداء، بالريش على
أكتافهم والقناع ذي المنقار على وجوههم، المُميتون.

مَن حان وقته؟ لا.. أبي؟.. أمي؟.. وهرعتُ ناحيتهم،
أصيح في توسلٍ

- "مَن.. مَن تُريدون؟ هل تقصدون هذا البيت حقًا؟"

تُحدق بي عيونهم الخالية من الحياة في برودٍ، اعتادوا
هذا الأسلوب من الأهل حتمًا:

- "هو البيت بعينه"

- "كيف.. إن أبي وأمي بخير، ولو مرضوا فسريرًا ما
سيشفون.. أوكد لكم"

- "ليس أبوك أو أمك يا فتى"

وسقط قلبي بين قدمي.. إذن.. إذن:

- "تقصدون أنني.. أنني الميت؟.. أنا من المحظوظين؟! "

- "وليس أنت أيضًا.. بل القط"

- "الـ. القط؟!!"

وخرجوا بالقط بعد دقيقة، مكوِّمًا في أيديهم بلا حركة،
قطي الذي يذكرني بها.. مات أيضًا؟! أتى اليوم الذي رأيتُ
فيه المميتين عندي، قضيت ليلة سوداء، أبكي لموت
القط.. ولموت حبي، ولخوفي من يومٍ أموتُ فيه فاجرًا
مُخالفًا إلهي، ويموت أحبتي، تموت نائلة.. ويذوى جمالها
بين البلى والدود، كل شيء يموت.. كل شيء سيموت، سيأتي
المميتون ويأخذونه بلا رجعة.

وكان اليوم الأول الذي أحلم فيه، حلمت بقطي يمشي
في صحراء قاحلة، صغير جدًّا... ضئيل جدًّا.. تائه جدًّا،
كذرة رملٍ في الصحراء... بل هو كذلك بالفعل، لم أكن
معه.. كنت أرى المشهد كأنه عرضٌ مسرحي مُجسم، بدا
لي موقفه مُخيفًا مرعبًا.. ذاك البائس، ما مصيره.. وهو
وحيد.. الأسوأ أنه وحيدٌ بلا صاحبٍ أو شريكٍ، مثلي.. حين
تركني برو يهوه وذهب لحاله وشلته.

وظل القط يمشي، كان رغم كل شيء يلعب.. أليس قطًا
شقيًّا في كل حال؟ يُطارِد ظلال النباتات الجافة في مرج،
يجري حينًا ويمشي حينًا آخر، لا يدري أنه بلا طعامٍ أو

شرابٍ أو مأوى، وِعما قَريبٍ رَهما تَتلقفه الطيور الجارحة
قبل قِضائه جوعًا وعطشًا، وهنا فقط.. رأيت ظلًّا يدخل
المشهد، فاردًّا جناحيه في عَنان السماء، طير أسود.. يدنو
من القط، يهبط إلى أسفل.. يبغاه وجبة شهية، صدق
حدسي.. صقر أو نسر أو حتى حدأة، انتهت حياة المَرِح
المغبون.

القط الغرير، راح يعبث مع الظل، يزيد القط سرعته
فيفعل الطير مثله... يتبعه... يقتنصه بنظره قبل مخالبه،
يترصده ولن يضيعه، ويقترب الظل.. ومعه الطير، الطير
الذي.. الذي لم يكن جارحًا، لم يكن مخيفًا بهذا القدر،
لكنه كان القدر نفسه للقط، كان غرابًا.. أتعيش الغربان
في الصحراء؟ القط يُلاعب الظل غير عابئ.. والغراب صار
أعلاه.. أعلاه بما لا يذكر، فاردًّا قدميه بمخالبها السود و...
أصحو صارحًا في رعبٍ.

قطي المشمشي.. مات، حتى في حلمي.. أخذه الغراب،
ولم يكن هذا نهاية المطاف، فقد طاردني الذئب مراتٍ لا
تُحصى، في الحلم الآخر الذي سأقصه عليك الآن يا محمد،
أملًا في تفسيره، فلعلك تكون منقذي من ضلالي وحيرتي.

انتهيتُ من قصِّ حلم الذئب، وأخيراً الدبُّ الذي
أنقذني الليلة قبل إيداعي هذا السجن المُسمى بالمسجد،
وصمت محمد مفكراً بينما جلجلت ضحكات غاندي
الهازئة ثانية:

- "هاع هاع هاع هاع هاع... ديب ودب وغباب وقط؟...
متأكد إنك بتدرس الحيل النافعة ولا شغال حارس
في جنينة الحيوانات؟"

ينهره محمد في حزم:

- "صه يا غاندي... هذه كلها رموزٌ ومعانٍ أنت
تجهلها"

- "طب كويس إنني بجهلها.. أقولك حاجة، أنا حلمت
بحمار إمبراح، فسّر يا عم وسمعني!"

تجاهله محمد ووجه حديثه إليّ بنفس الحزم:

- "إيساف.. أتحبُّ أن تُضيف شيئاً قبل التفسير؟ أي
حدثٍ مهم أو معلومة قد تُحدث فرقاً معي"
أقولُ في تسليم:

- "لا.. لا أظن، حكيثٌ لكم كل شيء، أنتم الآن تعرفون
عني كما أعرف أنا عن نفسي، تلك مسرحيتي
بكامل فصول العرض"

- "إذن.. فالحلمان واضحان تمام الوضوح، وسبب
وجودك معنا هنا أيضاً"

- "حقاً يا محمد؟ هل أستحق ما أنا فيه؟"

- "تستحقه.. وسأخبرك الآن لماذا"

راح محمد يُحدثني واعظاً..

"الأمر جلي كما الشمس المشرقة، أنت بالفعل تنكر
فطرتك وسليقتك، منذ شببت وأنت تُحاربها داخلك قبل
خارجك، اختار لك الإله أسمى مدائنه لكنك رفضت هديته
بكل قسوةٍ، جنحت للسوء والفجور، مع أن العُهر يتدفق
من بين يديك ومن خلفك، ألا فسحاً لهذا السلوك،

الصدق أقول لك: أنت عار على العاهرة، عار حتى على هذه الزنانة في هذا المكان القذر، أنت الضلال ذاته يمشي ويكلم الناس، لا بد أن تُمزق إربًا ويرموا أشلاءك للكلاب الضالة يا إيساف برصيصة، حملت أقدس الأسماء لكن العار يجلك ويثقل كاهلك، ألا فالإله القاسي الغليظ قادمك للسجن بدلًا من الموت، إنك حتى لا تبكي لكلماتي هذه! ما زلت تظن أن أفكارك السفيهة تستأهل الحلول في عقلك!"

"أنا أشفق عليك ولذا سأساعدك، سأخبرك بتأويل الرؤى، عسى أن يكتب لك الإله النجاة مع أنه قاسٍ غليظٌ لا يقبل حماقات العباد، أما عن القط والغراب، فالرؤية ساطعة كفلق الصبح وأنت قتلها بنفسك، الموت غراب أسود حطَّ على القط الجميل شبيه عيني حبيبتك في لونه، الموت سيأخذها يومًا ويأخذك، أليس المميتون يضعون أقنعة الغربان؟ وسيأتون لك في أيِّ وقت؟ وأنت يا أحمق البشر تضيع الوقت بعيدًا عنها وعن لذاذات الحياة، تهجر دار العبادة وتكف العابدة التقية الشفافة عنك، وهي تتشبث بك لمنحك نفسها لكنك تدفعها بعيدًا، الإله يُقدم لك الإنذار، الغراب سيهبط في أي لحظة ليقودك للجحيم، الجحيم الذي سيسعد بالحمقى

مثلك، فكل عاصٍ هو في الأصل أحمق، لذا فاسحَ يا عبد
 الإله لخلاصك بين أحضان العابدات التقيات، حالقًا شعر
 جسدك كله من أجل الرضا الأعظم من الإله الأعظم!"
 "وأما الذئب والدب، فالحق ظاهر لكل عاقل بخلافك،
 الدب هو شعار العاهرة، الدب هو النجدة والنجاة من
 الإله، كيف بقيت في غيبك بعد كل إنذارات الإله إليك؟
 عشرين حلمًا وأنت لا ترتدع؟ الذئب الذي كاد يأكل
 النبي إيساف وأنقذه الإله بدبِّ مزقِّ الذئب تمزيقًا،
 الدب أنقذك وسينقذك حقًا لو تبعته ورغبت في جواره،
 إيساف أيها العبد الآبق، أنت تشبه عالمك.. لكنك تُنكر
 هذا بشدة، ولذا تتنافرُ معه كما تنصُّ قوانين الفيزيقا،
 الحل أن ترقمي في أحضانه لأن شبيهه الشيء منجذبٌ إليه،
 الحل بين يديك وأمام ناظريك فهلا تمشي نحوه وتسلك
 الدرب الصحيح قبل فوات الأوان؟!"

- "الحل... أين الحل؟.. الـ.. الكرخانات، المواخير.. حلق
 الشعر؟"

يهدرُ صوتٌ محمد في غيظٍ:

- "دعك من حلقِ الشعر يا أبله، اتركه كما هو"

- "لكن الحلق فرضٌ من الإله و.."

يُمسكني محمد من منكبيّ ويجذبني نحوه، عيناه
تشتعلان في ثقبَيْهِمَا، صوته المنهك صار أشدَّ إرعابًا كوحشٍ
جريحٍ:

- "الناس لا تحلق يا هذا، والنساء لا يرتدين الملابس.."

هل فهمت؟ أنا كاهنك.. أنا أخبرك بالحق"

- "فهمت فهمت... إذن فعليّ بالطقس المقدّس، حتى

لو كانت عابدةً غير نائلة"

يتركني محمد ويقول فاردًا ذراعَيْهِ:

- "تلزمك التوبة النصوح يا إيساف، وأن تبدأ بما

تخشاه من أجل الإله"

- "تعني... تعني نائلة نفسها؟"

أشار لي بسبابته صارخًا:

- "أنت تحبها.. إذن سيكون الطقس أجمل وأمتع"

- "لكن.. لكنها"

- "لكنها فاجرةٌ وعاصيةٌ مثلك... وهنا بيت القصيد"

- "أرشدتها للتوبة معي؟"

- "ولو بالقوة"

- ١٦ -

- "تعني أن أجبرها على الطقس؟"
- "هكذا تعتذر عن كل خطاياك السابقة"
- "هل الإله يرضى عني بهذا.. هل يريد مني حقًا هذا؟"
- "الإله لا يريم إلا هذا"
- "إذن سأفعله... سأفعله وحق الإله ما استطعت ذلك"

المشعل الوحيد في الزنزانة أشفر على الانتهاء، ماتت جذوته أو كادت، ساد الصمت بين ثلاثتنا، ارتفع غطيظ غاندي الذي ملّ محمدًا وأسلوبه الوعظي الصارخ، رحّت أرمق الأرض المنقوشة باتجاه السجود، هل سأسجد قسرًا عما قريب؟ هل سأموّت وتلتهمني الكلاب الضالة؟ أو ربما الغربان السود، قطي المشمشي.. نائلة... أبي وأمي.. كتبي

وفنوني وحيلي النافعة، وكل جميل بحق في عالمي.. أين أنا منكم الآن؟ لكن لا.. لن أعود إليكم إلا طائعا مهتديا، وإلا فالسجن هنا والسجود أهون من كل شيء.

نائلة.. أنتِ السبب في كل ما حدث لي، لو سمعتِ كلماتي.. لو تُبنا معًا، أنتِ حمقاء مثلي، حمقاء وغبية.. لا، بل أنتِ الأجمل والأصدق من كل شيء، لا.. بل سأفعل بك ما يفعله كل التقاة، سأفعله مهما قاومتِ أو رفضتِ، بل سأتركك لأنني أحبك، ولكن ولكن.. آآآآ، طفت دموعي وغلبتني أخيرا، بكيثُ كما لم أبكِ منذ رحلِ قطي، بكيثُ بكل هموم وأثقال البشر، بكيثُ لعالمِ قاسٍ وإله قاسٍ، لم يرحمني كلاهما، بينما حدث العكسُ مع نائلة، رحمها إلهها وعالمها عندما وثقت بهم، تَبَّا لك يا نائلة.. وتَبَّا لكل شيء.

وزاد نحيبي وأنيبي، حتى أتاني محمد، وأسند رأسي لمكنبه:
- "نم يا صديقي، نم واحلم من جديد.. وارغب في التوبة بقلبك"
- "محمد.. أهذا هو الدين الحق الذي سُجنت هنا من أجله؟"
- "ليس هذا فقط يا فتى، بل وأكثر"

- "لكنك لست ضد المجتمع مثلي"
- "أنت ضد الإله والمجتمع.. لذا أتيت هنا"
- "وماذا عنك؟"
- "دعك مني... ألم أخبرك أنني من أجل الدين؟"
- "ولكن..."
- "نم يا إيساف، عسى أن يهديك الإله ويردك إليه أخيراً"

ومنتُ متعبًا، تستكينُ مفاصلي وضلوعي بعد كل أذى
 الليلة، غير أنني لم ألبث أن صحوْتُ مُجفلاً، فثمة يدٌ تهزُّني في
 إلحاحٍ، أفتح عيني بصعوبةٍ، ألفت قناع محمد القماشي
 وصوته المبحوح يهمسُ عاليًا:

- "استيقظ يا إيساف.. أسرع"
- "ما.. ما الأمر؟"
- "فرصتك الوحيدة للنجاة.. قم الآن"

أقوم في لهفةٍ، يشير محمد لشخصٍ مفتول العضلات
 حاد النظرات يقف بجانبه، عرفته على الفور، أحد الحراس

بالطبع، اللون الأسود يغزو جسده، ومن خلفه رأيت باب
الزنزانة مفتوحًا.. ما معنى هذا؟

- "إيساف.. لقد شرحت للحارس كل شيء، وقد تفهّم
موقفك وقيل مساعدتك، نعم.. الآن سيأخذك للخارج
لتصحيح كل أخطائك"

تتفرجُ أساريري وتتسع عيناى فرحةً.. لا أصدق، يومئ
محمد بصبر:

- "فلتسرع الآن ولتذهبْ معه.. سيوصلك للمكان
المناسب"

أعانقُ محمد داعمًا، ما زلتُ لا أصدق:

- "ولكن.. ماذا عنك وعن غاندي؟"

- "نحن لا أمل منا، لو هربنا فسيُعيدوننا حتمًا، حلُّ
قضايانا ليس بالهرب، بخلافك أنت، تذكر فقط ما
اتفقنا عليه"

- "سأتذكر.. لن أنسى أبدًا"

- "هيا بنا!"

يقولها الحارسُ بغلظةٍ، أدع محمدًا وغاندي النائم
هناك، يقتادني الحارس عبر شبكة الممرات قابضًا على يدي

بحسبٍ حتى بلغنا باب المسجد، منه لاح الظلامُ المُقمر
البديع، ظلام الحرية، يتجه الحارسُ نحو عربة الجياد
نفسها، يشير إلى المكان بجانبِ الحوذي، ويقول:

- "اركب!"

فأطيع الأمرَ ويجلسُ الحارسُ بثقله إلى جانبي ممسكًا
بالسرج، تنطلقُ الجياد نحو النجاة، انتهى الكابوسُ أخيرًا،
وبكيتٍ من جديدٍ متخيلاً حياتي القديمة ..

- "لم ينته الأمرُ بعدُ"

اسمعها رغم الهواء اللافح من حولي، أكمل الحارسُ
كلامه:

- "ينقصك التوبة الكاملة.. الندم وحده لا يكفي"

لا أفهمه، ولم أشأ سؤاله، انتظرت حتى يأخذني لبيتي
ولكن.. مرَّ الوقتُ سريعًا ووجدتُ نفسي أمام بيتٍ آخر،
بيت كنت أعرفه جيدًا، من الطوب وليس القش، وفي
طابقه الثاني، كانت نافذة مضاءة .. وتوقفت العربية.

- "فلتسلق هذه الشجرة حتى النافذة.. وهناك تعرف

ما عليك فعله"

لم يكن سوى بيت نائلة.. بالفعل، فهمت كل شيء،
نظرت للحارس سريعًا ثم تسلقت الشجرة بلا كلمة،

تسلقتها كالمجنون، كالهارب من حكم الإعدام، بعد كل الهول الذي شهدته بسبب نائلة، هل أتردد للحظةٍ واحدةٍ؟ لا بد أن أحفز نفسي قسرًا لاشتهائها، أمني جسدي وغرائزي بها.. ورأيها حين وصلت للنافذة، ك(روميو) الذي تسلق الشجرة ليمارس الطقس مع (جوليت) رغم رفض أهلها لذلك.

هي بشحمها ولحمها الثمين غافية هناك، نائلة الفاجرة العاصية... الغيبة، نائلة التي خالفت النصوص ولم تتعزَّ مثلنا، لم يجذبني جسدها يومًا رغم اختفاء معظمه عني.. ولكن الآن... حتى في نومها لم تتخل عن الملابس؟! يلتمع ما انكشف من جلدها الناصع في ضوء القنديل، فلتثيريني الآن وتُحركي ولعي الخامد بداخلي منذ رأيت إيرما، لأتوق إلى نزع ملابسك.. بل تمزيقها تمزيقًا، ودخلت من النافذة، لم أحدث أي جلبةٍ، لكنها تقلبت في نومها وبدت أكثر إثارة.. لا بد أن تكون كذلك، ودنوت منها أكثر وأكثر.

سأفعلها عنوةً، سأتوب وأتوبها معي، لن أعود للمعصية ثانية يا محمد، وستحملين لي جميل صنيعي ما عشت يا بنت هُبل، يا حبيبتني، يا غاليتي، رفعتُ يديَّ نحوك قبل حتى أن أصل إليك، عيناى تلتهمانك وترشقان كلك، لا لم أنظر لوجهك الآن فما عاد يعنيني، أنا الآن أتوبُ يا

نائلة... أتوب بحق، أشتهي الجسد في حلال الإله، ومشيتُ
ببطء ويدي ما زالتا مرفوعتين، تبغيانك.. تريدانك، وأخيراً
وصلتُ إليك، بلغتُ مقصدي واستعدتُ يدي للهبوط..
كل شيء جاهز.. كل حواسي متيقظة... سأفعلها... سأفعلها..

وهبطت يداي..

وأصابعي المنفرجة..

تستعدُّ لنهشك..

كمخالِبِ الغراب..

كأنيابِ الذئب..

كأيدي الدبِّ يُمزق فريسته..

لم يتبق شيء..

أقصر من أقصر خيطٍ في حيلك النافعة..

وتمضي يداي... ويتوحش وجهي الساعي للتوبة..

- ١٧ -

سأفعلها بك يا نائلة أخيراً..

يا سببَ البلاء..

يا أحلى ما في دنيتي..

يدي تعرفُ طريقها..

ذكريات الكرخانات تتداعى..

رغباتي كلها تنتظر..

وباقى الجسد ينتظر و..

أكادُ أتلوى من الشهوة..

وهنا...

وهنا فقط...

ثبتت يداي...

شلت يداي..

وبكت عيناى!

لم أستطع... وارتمت يداى إلى جانبى، وسقطت دمعةً منى على وجهها، وددتُ لو قبلت جبهتها فقط، لكنى تراجعْتُ ناظرًا إليها عبر الدموع، لا أريد هذا.. لا أريد هذه التوبة، بل أريد حُضنًا منها ولو بالملابس، أبغى عناقًا يرد إليَّ رُوحى، أضُمُّها وتضمُّنى، وأبكي على منكبها غير أبهٍ أو خزيان، نائلة.. حبيبتى، ودفنتُ وجهى فى يديَّ أنتحبُ، ويعلو نشيغى خفيضًا و..

- "أحمق"

سمعتُ هذه الكلمة تتردد فى المكان:

- "أحمق"

سمعتُها ثانيةً بصوتٍ أعلى، أبعدتُ يديَّ عن وجهى، رأيتُ نائلة وقد استيقظت، ترمقنى بغيظ كل البشر فى سريرها، تجزُّ على أسنانها وتلوي شفثيها احتقارًا، تصرخُ مشيرةً إليَّ:

- "أحمق"

تقومُ من السرير، تدفعني بعنفٍ وتصرخُ كأنها تبغي
إصابتي بالصمم:

- "أحمااااق"

لا أفهم شيئاً، لماذا تنعتني بالأحمق؟ ربما تظنني
سأؤذيها، سأعترفُ لها.. لقد تراجعْتُ عما في بالك، المفترض
أن تشكريني الآن و..

- "أنت يا هذا.. أيها الشيء القذر"

تصفعني بشدةٍ، وتواصل الصراخ:

- "مَن تظن نفسك... هه؟ أخبرني... مَن تظن نفسك؟..
النبي يوسف؟"

النبي يوسف؟! وهل لدينا نبي يُدعى يوسف؟ لكنني
مع هذا، أظنني سمعتُ هذا الاسم من قبل.. منذ زمنٍ
بعيدٍ، حاولتُ التفاهم معها، لكن غضبتها الهائلة حالت
دون ذلك، ظلت تمطرني باللعنات وتضربُ ما تطوله من
جسدي العاري.. تصرخ:

- "أنت لا شيء، أنت فسلٌ حقيرٌ، ستعيشُ وتموتُ
غارقاً في ذنوبك، مهما نأيت عني وعمن سواي"

وفي اللحظة التالية، حدث ما فاق كل أحلامي رعباً،
نائلة.. وجهها الجميل صار ناحلاً أقرب إلى العظام، غار

أرتمي على الأرض في عنفٍ، لا أشعرُ بالألم قدر إحساسي
بالصدمة.. بالهلع، ماذا حدث للتو؟!.. نائلة ماتت أمامي؟!
ولكن أي موت.. وأي معنى لما حصل؟ رفعتُ ظهري لأرى
رد فعل الحارس المنتظر، كان مديراً لي ظهره ولكن.. ما
بال هذا السواد يُغطي ظهره؟ شيء منفوشٌ هناك لا
أتبينه في الضوء الشحيح، لم تطل حيرتي، فقد استدار الرجل
ليواجهني و.. الرجل، شهقتُ في رعبٍ أنظرُ إليه، لم يعد
رجلاً.. وإلا فما ذاك الريش يُغطي جسده؟ ريش؟!.. ريش
ومنقار، ومخالب يمدُّها إليَّ ناعقاً بصوتٍ يكاد يقتلني،
صار كالميتين، بل هو مميت حقيقي.. لا يضع قناعاً،
بل هو مزيجٌ بين رجلٍ وغراب.

الفرار.. الفرار من الهول، من الجحيم كما قالت نائلة،
الجحيم الذي اكتمل ببرقٍ شقَّ السماء محيلاً الليل نهاراً،

وتلاه الرعدُ مرجفًا جسدي أكثر وأكثر، ثم المطر ينهمرُ كالسيل فوق رأسي مدرارًا، تابعتُ العدو فقط أنهج وأبكي، هل الرجل الغراب خلفي؟ أتراه يتعقبني؟ أي كابوس هذا و.. نعم، هذا ليس إلا كابوسًا آخر من كوابيسي، نائلة تصيرُ جثةً أمام ناظري، والرجل يضحى غرابًا؟ أنا ما زلتُ في المسجد نائمًا، حلمتُ بنفسي أهربُ وأتوبُ ولكن.. لم أستطعُ مجددًا، أهو اختبار من الإله الغليظ القاسي وقد رسبت فيه كالمعتاد فاستحققتُ العقاب؟

تلتصقُ بي الملاءة بفعلِ المطر، يطعنني البردُ بسببها بألف خنجرٍ، لكنني لم أتخل عنها ولا أدري لماذا، تعثرتُ في حجرٍ ضخيمٍ، وحين هممتُ بالوقوف سمعتُ الصوت، صوت آلاف الغربان تنعقُ في ثورةٍ، من أين النعيق.. من أي ناحية حتى أسلك غيرها؟ الصوت يعلو ومن كل الجهات، ويعود البرق منيرًا الدنيا.. لتتسعَ عيناى إثر المشهد الرهيب، السماء.. تزدحمُ بآلاف الرجال الغربان، يُحلقون وينعقون، يقصدون هدفًا واحدًا بلا شك، زلزلني هزيمُ الرعد مجددًا، رحّتُ أجري لاهثًا كالمحموم، كل هذا من أجل نائلة وإيرما و.. واصطدمت بشيءٍ ما في الظلام، كان.. كانت إيرما! لكنها جثة حية أخرى، ناحلة متآكلة تُحدق بي في وحشيةٍ، قالت بصوتٍ كالهسيس:

- "فلتأتِ يا حبيبي.. لتتعبد معًا!"

لم تكن وحدها.. بل خلفها جثة أخرى.. بل اثنتان.. بل جيشٌ كاملٌ منهن، كلهن يطاردنني.. كلهن يبغين رأسي، إلى أين؟ إلى أي مكان أهرب؟ عُدت أعدو موقنًا بهلاكي، يا لغضب الإله القاسي، الغربان الضخمة تطير نحوي، تنهشني بمخالبها ومناقيرها، وأيادي الجثث المتآكلة تمتد نحوي، لكن الملاءة حمتني من جديدٍ حتى تمزقت وتهللت وغرقتُ بالدماء، إلى متى؟ إلى متى العذاب والألم والرعب؟ فلتقتلني وتنهني كابوسي هذا، كدتُ أقفُ وأستسلمُ لها بالفعل كعادتي، لكنني وجدتُ فجأةً ذاك البناء أمامي، عاليًا يشمخ في الظلام، المسجد.. هو بأبراجه وقبابه وأهلته، هرعتُ إلى بابه دون أن أتساءل كثيرًا عن سبب وجوده هنا، الكابوس يكتملُ على كل حالٍ.

دخلتُ المسجدَ مباشرةً أتحسس طريقي في ممراته، تتبعني جحافل المطاردين والمطارادات، يصلني صوتُ النعيق وهسهسة الجثث، وجدتُ ززانةً مفتوحةً، دخلتها وأغلقتُ الباب فورًا، كانت ززانتني... أو هي تُشبهها، بل هي.. لأن محمدًا كان واقفًا كأنه ينتظرني:

- "ما هذا الذي يغطيكَ؟"

صوته.. لم يعد مجروحًا مُنهكًا، بل هو ثابتٌ صلب:

- "ملاءتها.. ملاءة نائلة"

- "ماذا حدث بالضبط؟"

وحكيْتُ ما حدث بسرعة، واستمع لي محمد بنفاد صبر حتى..

- "ولم تفعل شيئاً؟"

- "لم أستطع"

كرَّر محمد سؤاله ضاغطاً على كل كلمة:

- "لم.. تفعل.. شيئاً؟"

- "صدَّقني حاولتُ، ولكن.."

- "أحمق"

- "ولكن أنا.."

- "أنت أحمق مَنْ عرفتُ في حياتي يا إيساف"

- "محمد اسمعني فقط.. هذا محض حلم و..."

- "ليس حلمًا وأنا لستُ محمد!"

وأزاح محمد قناعه، لم يكن هو... كان..

- "عرفتَ الآن إلى أيِّ مدى كنت أحمق؟"

أصرخُ في جزعٍ حين أدرك أنه..

- "برو... برو يهوه؟!!!"

- "أتعرفُ مم يتكوّن اسمي أصلاً يا أغبي الخلق؟..."

من اسمين تعرفهما جيداً.. بروتس ويهوذا"

- "هذا ليس بحق... أنا ما زلت أحلم"

يُمكنني برو بعنفٍ من ملائقي:

- "أنا هو يا غبي، أنا بروتس يهوذا صديقك الممثل،

كل ما حدث كان تمثيلاً، هذا ليس بحلم، أنا من

أبلغ عنك أمن العاهرة ليقنادوك إلى هنا، بعتك

يا أحمر بثلاثين محظية فاتنة أتعبد معهن في

الماخور"

- "حتى أنت.. تفعل بي هذا؟ مستحيل!"

- "المستحيل هو أن تفهم يا أغبى الأغبياء، ما من شيء يُسمى صداقة إلا في أحلامك، لكم كرهتك أنت ومثلك البلهاء، تزهد في أحلى لذائذ الحياة من أجل نظرةٍ وعناق! أبله وأحمق وغبي"

ويدفعني برو إلى حائط الزنانة، أصطدم به وأسقط في ذهول، أما زال الحلم مستمراً؟! لكني لم أشعر بالحقيقة كما أشعر بها الآن، ولكن أين الحقيقة... وأين الحلم؟

- "أنت لا تستحق العيش، مثلك ينبغي أن يموت.. فهمتني؟ يموت أبشع ميتة"

وراح برو يركلني في وجهي وسائر جسدي، بينما أفادي نفسي بيديّ فقط:

- "تُغطي جسدك الآن بملاءة، يا للسخافة!"

وأردف صارخاً في وحشيةٍ وجذليٍّ شديدٍ:

- "الآن فقط... ستنال عقابك، ستموت ببطءٍ جديرٍ بغبائك، ستموت ألف مرة ولن تعدم الألم الذي تستحقه، لن تحذر ماذا أعددت لك من عذاب يا إيساف، ليس بذئبٍ أو بغربان، بل بهذا"

ومرّت لحظةً، سمعتُ فيها صوت خوارٍ أرعبني أكثر من أي رعدٍ، وجدتُ شيئاً هائلاً يقفُ أمامي، بلغ سقف

الزنزانة طولًا، لمع جسده الأبيض في ضوء الشعلة، الدب...
الدب نفسه الذي أنقذني من الذئب في الحلم الأخير،
يُكشر عن أنيابه الآن، يخورُ في نشوة المقبل على وجبةٍ
شهيّة، يقف برو بيني وبينه، ضاحكًا في خبثٍ يرمقني
بتشَفٍّ، ويقول:

- "لن تنفَعك ملاءتك الآن، مخالبه ستنفذ مباشرةً إلى
لحمك"

يربت برو على فرو الدب باعتدالٍ:

- "لا تنتهِ منه سريعًا، ولن تكون المرة الأولى فكابوسنا
طوييييييل"

ويُغادر برو الزنزانة تتعالى ضحكاته الشامتة، تاركًا
الدب الأبيض يخور ويزوم، وكأنني أفكر في الهرب منه أو
حتى مقاومته، فعلها بي الإله القاسي، هنا في هذه الزنزانة
وعلى الأرض المنقوشة نحو قبلة العذاب، كُتبت نهاية
إيساف برصيصة، حلمًا كان أم واقعًا.. أنا في الجحيم، هل
كان ينبغي أن أقاوم غرائزي.. أن أدفع إيرما ونائلة عني؟!..
أن أترك الشهوة واللذة.. وأقود نفسي لهذا؟

الجزء الثاني

صديق

كانت حياتي مستقرّةً، خريج جامعي ينتظرنى مستقبلُ
لا بأس به، معي مخطوبتي تُشاركني واقعي وأحلامي،
في الواقع.. كانت أحلامي طبيعية!، حتى تغيّر كل شيء
وانقلبت حياتي البسيطة رأسًا على عقبٍ، وكل شيء بدأ
بحلم، لم أر فيه نفسي أنا عبد الملك شريف مترجم اللغة
اليابانية، بل رأيت شخصًا آخر، لم تربطني به العلاقة التي
تسمحُ بكل ما أحدثه من زلزلةٍ في عالمي، لكنني لم أراه لمرةٍ
واحدةٍ، بل لعشرين مرةً في حلم يتكرر يوميًا!

في الليلِ الكاحل المُدلهمِّ، أرى الذئب يُطارده ولا يرحمه،
أراه يعدو نحو الجرف هناك حيث البحر في الأسفل يهدر
مرعبًا، أراه يصرخ وأسمع من ينادي باسمه.. ربما أكون
أنا؟! أناديه مُشفقًا على مصيره اليومي كعذابات الأساطير
والخرافات.

في الليلة العشرين، رأيتُ دُبًّا عملاقًا ينقذه، ينتشله من الأرض انتشالًا ويؤيُّ به فرارًا من الذئب، لكن لحظة.. الدب.. الدب لا يعدو نحو الأمان، بل إلى الجرف نفسه، المسكين تمسك بمنقذه الأعمى، ورأيت الدب يسقط فاردًا ذراعَيْه كأنه الخلاص، واقترب المشهد نحو حافة الجرف.. لأرى المستغيث من الرمضاء بالنار.

لم أبصر أحدًا يسبح أو يضرب الماء، غاص الاثنان بلا عودةٍ، أم لعل الدب أغرق المسكين الذي وثق به؟! وهنا ينتهي العرضُ.. لأكمل عشرين ليلةً من مشاهدة عذاب محمود، هكذا كان اسمه كما عرفته منذ عامين ونصف، محمود مصطفى أو كما اشتهر بين أصدقائه منذ حادثته بأغرب اسم شهرة ذي طابع شعبي سهل الحفظ كـ(حنتيرة) و(توشكى) وما شابه، مع أن الاسم تشيكي الأصل! فعلاً... كان الذئب يُطارِد محمود كافكا في أحلامي كل ليلةٍ.

الكل يمزح.. يأكل.. يصخبُ ويُعلنُ حرّيته على الملأ،
عُصت باحةُ الكلية بالطلبة في كل أرجائها، في مجموعاتٍ
من ثلاثة أو أكثر، غايتهم الاستمتاعُ الأقصى بهذه الاستراحة
القصيرة من محاضرات اليوم، خاصة أنها- المحاضرات- لم
تكن تعني لأكثرهم شيئاً رغم اختلاف دراستهم وكلياتهم،
هنا فقط يجتمعُ الطبيب بالمهندس بالمحاسب بالمحامي،
هنا فيما يجبرون على حضوره ويُسمى (التربية العسكرية).

كانت دورةً مكثفةً من أسبوعين، هدفُها تعريف الجنس
الخشِن من الطلبة بمبادئ العسكرية، طوابير الصباح حيث
الحضور المبكر و(قيافة) الملابس الموحدة، صفا... انتباه..
صيحات وطنية لتحفيز الجموع على رفع أصواتهم عند
تنفيذ الأوامر وتحريك أقدامهم وأيديهم بأسرع وأقوى ما
يُمكن، كانت الدورة تعني مللاً لا نهاية له لأغلب الذين

لم يعتادوا حياةً كهذه، مع إلغاء مصطلح الهواتف الخلوية من قاموسنا تمامًا، وطبعًا كان سماعُ صوت الهاتف يعني الطرد وإعادة الدورة بلا نقاشٍ.

في هذا اليوم رأيتُه، منزويًا هناك في ركنٍ وحده، يجتمع الآخرون برفاقهم، ويجتمع هو بكتابه الضخم ممسكًا بدفتيه غارقًا في عوالم أخرى، جذبني مشهده حين مررتُ به، ولم أقوم عادي السبيئة بالنظر لـغلاف كل كتابٍ أراه، حين تكون دراستك مثلي تجد نفسك تفتش عن الكتب الجيدة ما سمحت لك الظروف، فقط لأقرأها باليابانية، وأستزيد من الخبرة والعلم، وحين لمحت غلاف الكتاب، أدركتُ أنني لن أفوت فرصة الحديث مع هذا الشخص حتى لو انتهت الاستراحة الآن، اقتربت منه هاشًا باشًا، أشير لكتابه بادئًا الكلام:

- "معذرة... هل لي أن أسألك عن رأيك في هذا الكتاب؟"

يرفعُ رأسه ناظرًا لي ببسمة من وجد شيئًا يسعده:

- "بالطبع.. تفضل أولًا!"

أشار لجانبه لأجلس، فعلتُ بينما أغلق هو الكتاب
بعدما وضع تذكرة مترو حيث توقف على سبيل ال-
bookmark، مدَّ يده مصافحًا

- "محمود مصطفى... هندسة ميكانيكية"

- "عبد الملك شريف... ألسن لغة يابانية"

- "هكذا... عرفتُ سرَّ انبهارك بالكتاب"

- "بالطبع... لا يقابل المرء كل يوم من يقرأ لهاروكي
موراكامي مثلك!"

- "ولا يُقابل المرء كل يوم من يدرس تلك اللغة
المعقدة كالعربية! موراكامي غني عن التعريف لكل
متابعٍ للأدب العالمي... هو الأشهر بين مواطنيه."
أشرتُ للكتاب الراقد بين يديه، وقلتُ:

- "صحيح... والآن ما رأيك في روايته الأشهر... (كافكا
على الشاطئ)؟"

ألقى محمود قبيلته فوراً:

- "لم أحبها... فقاعةٌ أدبيةٌ جميلة المنظر.. ممتلئة
بمحض هواء.. أو ربما فارغة تمامًا!"

كان صوتُ أحدهم ينادي محمودًا... يُناديه بكافكا!،
باسمًا سألته بينما نقفُ معًا لنلحقَ بالمحاضرة:

- "أنت مشهورٌ بين رفاقك باسم كافكا؟ معقول؟..
يُنادونك هكذا!"

- "منذ كنتُ في الصف الخامس الابتدائي! لكني
لم أسمِّي نفسي به كما فعل بطلُ الرواية، رأني
أصحابي أقرأ روايات فرانز كافكا وقتها.. فسمُّوني
هكذا! تحوّل الاسم مع الوقت للطابع الشعبي
العادي! وكأنه (مانجا) أو (سامبا) أو حتى (حتيرة)!"

ابتسمنا معًا حيث وصلنا لباب المدرج ودلفنا منه مع
المُسرعين، جلسنا متجاورين نقتنص الدقائق الأخيرة قبل
الصمت التام أثناء المحاضرة، لاحظت أنه قال (مانجا)
بمعنى الفاكهة، فقلت باسمًا:

- "على كل حال... المانجا عندنا في اليابانية أيضًا!"

كنتُ أعني المانجا في اليابان، وهي القمص المصورة
هناك، ردَّ محمود بثقةٍ:

- "بالطبع.. وعلى ذكرها.. أحببتها أكثر ما أحببتُ أدب
ذلك البلد"

حول الأدب، تعارفنا بأكثر مما يسمح اللقاء الأول وتكررت جلساتنا في الأيام القليلة المتبقية من الدورة، وبعدما انتهت الدورة صار لقاءنا صعبًا، لكننا حافظنا عليه كل عدة أشهر، زيارات بالصدفة منه لكيتي أو العكس، حفلة هنا أو نشاط طلابي هناك، مع هذا لا أظننا تقابلنا بما يفوق أصابع اليد الواحدة عددًا.

هكذا لم أقرب كثيرًا من كافكا، ظلت العلاقة سطحيةً إلى حدٍّ كبيرٍ، لم تتعد الاهتمامات الثقافية من أدبٍ ولغةٍ وما شابه، لكنني أدركتُ حقيقةً أكيدةً، هو غريب الأطوار عجيبيها، ليس من النمط الذي تُطلق عليه (اجتماعي) بضميرٍ مستريحٍ، كما رأيته أول مرة، ينتبذ مكانًا ليكون وحده بعيدًا على العيون، كنتُ أشعرُ أحيانًا أنه يتجنبُ مقابلي، فأنا من أسعى في كل مرة لأقابه، لم يتهرب مني أبدًا حين أطلبه، لكنه لم يُعاملني بالمثل مرةً واحدةً.

لهذا كانت القطيعةُ بيني وبينه، هي تلك الغيبة التي تطول بين الرفاق ممن جمعتهم الظروف، وحين تنتهي تلك الظروف يكون انقطاع الأواصر سببًا محتومًا للفراق التدريجي، تقلُّ المقابلات والمكالمات شيئًا فشيئًا حتى تنعدم، هو أيضًا ساعد في ذلك بانعزاله وميله للوحدة كما أخبرتك، وهكذا اختفى كافكا عن ناظري وذاكرتي حتى

تخرجتُ في الجامعة وعملت مترجمًا بإحدى الشركات، هو الآن ينقصه عامٌ واحدٌ على التخرج.

لكنه عاد ليظهرَ في حياتي ثانية، في أحلامي على سبيل الدقة، ولعشرين يومًا حتى الآن، مع ذئبه ودبه كل مرة، لم أجدُ الاتصال به مع الأيام الأولى، لكنني مع الحلم السابع بدأتُ أسعى إليه، ضَعُ نفسي مكاني، اليوم السابع مميز دائمًا على كل حال، لكن نيتي للاتصال لم تُكلل بالفعل، فرقم هاتفه ذهب مع هاتفني المسروق! لا أعرف عنوانه بالتفصيل، بريده الإلكتروني مُغلق على الدوام، لا فيس بوك، ولا أعرف صديقًا معينًا له، وحتى لو تذكرتُ وجه صديقه المقرب الوحيد الذي رأيته معه ذات مرة، فكيف عساني أجدُ هذا الصديق الآن؟!

في اليوم العشرين، سقط محمود في البحر أخيرًا، هوى مع الدب.. أو ربما أسقطه الدب كما شعرتُ أنا، صحوثُ غارقًا في العرق، أشعر بأثر دبلة الخطوبة الضاغطة التي طوّقت بنصري منذ أيامٍ، محمود... أين أنت؟.. ماذا بك؟.. ماذا يجري لك؟! وكيف السبيل إليك؟! وهنا تذكرت... هاتفه، مكتوب على كارت التربية العسكرية، هببتُ من سريري أتذكر، أين ذلك الكارت؟ نعم... في

كتاب موراكامي الذي قرأته وقتها بوحى من محمود،
رواية (الغابة النزويجية).. لكن أين مكانها الآن؟!

لساعةٍ كاملةٍ شرعتُ أبحثُ عن الكتاب وسط أكوام
كتبي، رموز (الكانجي) اليابانية على الأغلفة تتلاقى أمام
ناظري، تذكرت شكل الكتاب، الفتاة الواقفة وسط الغابة
و... وجدته، الكارت... الرقم، والتقطتُ الهاتف الخلوي
من فوق الكومود، الساعة تخطت الثانية عشرة ليلاً،
ليس مهمًّا، لكن.. أيردُ الآن بعد سنتين ونصف وفي هذا
الوقت؟ أيبقى الرقم رقمه.. و... جرس!... جرس الهاتف!
رنة.. رنتان... ثلاثة، رُدَّ يا محمود.. رد يا كافكا أو كُفَّ
عن الظهور في أحلامي.. رد أرجوك!...

- "ألو"

صوتُ امرأةٍ كبيرةٍ نسيبًا... أصمتُ لوهلةٍ، أتنحجُ وأرد
كاتمًا لهفتي:

- "محمود.. أليس هذا هاتف محمود كافكا... أعني
محمود مصطفى؟!"

- "أنت صديقه؟"

هكذا ردت المرأة بصوتٍ كسيرٍ واهنٍ.. بل صوت
أقرب إلى البكاء:

- "نعم.. أنا صديقه... أين هو.. أيمكنني التحدث معه؟"

- "هو بجانبني... محمود.. محمود.."

وانخرطت المرأة في البكاء الحار! معقول؟ لا.. لا تفعلها يا محمود... هل كان الدب يعني.. يعني.. وفي نفس اللحظة؟! بعد سنتين ونصف يا محمود؟! وأغلقتُ الهاتفَ مذهولاً تلمع عيناى بدموعٍ حبيسةٍ، لم أعرف أنى بهذه الشفافية، وأحلامي تقتربُ من الواقع هكذا!، ليتني اتصلت بك مع أول حلم وحذرتك يا كافكا، الحياة أحياناً تُقدم لنا مواقف كهذه.. تدرج تحت بند الغرائبيات وما وراء الطبيعة، كان ينبغي أن أعرف!.. أن أُصدِّق أن ثمة أموراً غيبيةً و.. رنين الهاتف، ينتزعني من خاطري، هل كنت لأتوقع أن الحياة بعد هذا الرنين قد تُصبح واحدةً من قصص كونان التي يكتبها جوشو أوياما ويصير عالمي كله يتلخص في كلمتين هما محمود وكافكا؟

أنظر في الهاتف... تتجمّد دموعي للحظة، رقم محمود
ثانية... أبتلعُ ريقِي بصعوبة:

- "أ.. ألو؟!"

- "يبدو أن الخط انقطع يا بني... أنا والدة محمود"

ابتلعتُ ريقِي ثانية.. هناك غصّةٌ في حلقي بدأت
تزول:

- "هل محمود بخير؟!"

تصمت أم محمود... تتمالك نفسها وتُجيبني:

- "بخير.. بخير يا بني"

أتنفس الصعداء... أقول كمن أنقذوه من الغرق:

- "تقولين إنه بجانبك يا أمي... هل أستطيع الكلام معه إذن... أم أنه نائم؟"

- "لم تُخبرني باسمك يا عزيزي"

عرَفْتُها بنفسِي وبِعلاقَتِي بِكَافِكا، قلتُ إنني تذكِرتُ
محمودَ الآنَ وأحبِبتُ أنَ أكلمه قبلَ أنَ أنسى، الوقتُ
متأخِرٌ لكنّه سيُقدِرُ ذلكَ حينَ يُكلمني و...

- "إذن فأنت لم تعرف بعد يا عبد الملك"

- "لم أعرف ماذا؟!"

- "محمود... محمود في المستشفى الجامعي.. راقِد
في غيبوبة"

- "غيبوبة؟!"

كرَّرتُ الكلمةَ كأنني لم أستوعبها.. فعلاً لم أفعل، قالتُ
بمرارة:

- "هو الآن.. كالْميت، لكنه ما زال على قيد الحياة"

وعادت الأم للبكاء والنهنية.. فيما فغرتُ فمي أتفكر في
هذا الموقف العجيب، غيبوبة... ميت... على قيد الحياة؟

تأملتُ محمود مليًّا على سريرهِ في المستشفى الجامعي، كالنائم فعلاً، لولا الخراطيم والمعدات الطبية العديدة التي تُحيط به، زاد عمره عدة سنوات، فعلت فيه الغيبوبةُ ما فعلت... والمرض، المرض؟... أي مرض هذا؟! والداه جالسان معي في صمتٍ، يرمقان وحيدهما ويرمقانني بشيء من الامتنان بين الحين والآخر.

خرجت دمعتان رغماً عني... يا لسخاقتي، يبدو أنني تأثرت حقاً بطباع اليابان ومغالاتهم في المشاعر، ملحتني الأم فانهمرت دموعها من جديدٍ، وظل الأب ساهماً في نظره لابنه، اعتذرت لهما فتقبلا مني بهزُّ رأسيهما نفيًا، لم آت لأزيد من جزعهما، كان لا بد لي من السؤال، انتظرتُ اللحظة المناسبة وسألتُ الأم، بعينين مُحمرَّتَيْن كليلتَيْن نظرتُ لابنها وطفقتُ تحكي، انتبهتُ لكلماتها بكل حواسي.

حكى الأم نصف الثكلي، حكى عن ابنها طالب الهندسة، كيف قضى عامه الأول والثاني سعيداً بالدراسة والكلية، بل كان عامه الثاني أسعد ما يكون حين حصل على تقدير جيد جداً متأخراً عن الامتياز بدرجاتٍ قلائل، ذكرتُ أن ابنها كان يُقدس تقدير الكلية، كان يعتبره مقياسه الوحيد للسعادة وجدوى الأيام، بعدها حدث ما حدث، تعثر الطالب السعيد، تعثر حتى نال المقبول مع

الرسوب في مادتين في السنة الثالثة، وكيف أنها- الأم- لامته برفقٍ وطلبت منه التعويض للعام التالي، حكّت كيف قضى عامه بعدها كالهائم في عالمٍ آخر، نظراته كمجذوبي الحسين أو العباقرّة المهووسين، ينسحب من حياته العادية بالتدريج ليغرقَ بين الكتب والدراسة ولا شيء سواهما، الوقت كله للمذاكرة، يقتطع بالكاد ما يكفي للطعام والحمام والكلمات المقتضبة مع الأهل، لا أصحاب... فقط الكتب هي أصحابه، كتب الدراسة فقط لأنه قاطع الأدب، الكتب المقررة لم تعد كافية، والمراجع ملأت مكتبته الصغيرة التي لم تكفِ هي الأخرى، حاول الوالدان إخراجه مما هو فيه لكنه كان سعيداً، يبتسم ويؤكد أنه ليس ثمة حال أفضل مما هو فيه.

كالمتوقع، بل بما فاق المتوقع، حقق محمود الامتياز في كل المواد، لم ينقص سوى خمس درجات فقط! كلها درجات تقديرية لا علاقة لها بمجهوده، الأول على دفعته بلا جدالٍ، بل الأول بهذه الدرجة في تاريخ الكلية، أصابت الدهشة العارمة كل أساتذته، هذا ليس بإنسانٍ، هذا أينشتاين.. ربما الخوارزمي، لا شيء آخر.

ماذا حدث بعد هذا... لا شيء... لا شيء ألبتة، وجدناه منكفئاً على مكتبه غائباً عن الواقع، نقلناه للمستشفى...

شاهده من شاء الله من الأطباء، كلهم أعلنوها بدهشةٍ وعجزٍ، صدمة أدت لغيوبيةٍ، وهل الصدمات تؤدي لغيوبية؟ وأي صدمة هذه.. أي صدمة لطالب هو الأول... هو الأفضل على الإطلاق، لم نفهم ولم نعرف ماذا حلَّ به وكيف حلَّ، وعرفنا أن محمود ليس وحده في هذا، كثيرون حول العالم غائبون منذ سنين... بل منذ عقود، لكن هل يتخيل المرء يوماً أن يصيب ابنه ما أصاب محمود...؟

جلست بجانبه مفكراً، لم يعد لبقائي فائدة، كافكا... أين أنت الآن؟ وما الصدمة التي نالت منك، هي صدمة نفسية ولكن... مَنْ لنا بمعرفتها الآن وأنت معنا بالجسد فقط، أما النفس فالله وحده الأَعلم بها، حانت مني التفاتة فرأيت شيئاً ينتمي إليك على الكومود بجانب سريرك، حتماً ينتمي إليك، رواية صغيرة الحجم عرفتُ في غلافها رسومات جمال قطب المتقنة، كانت لنجيب محفوظ، بحروفٍ مرسومةٍ بتفننٍ بديعٍ كُتب اسمها... حديث الصباح والمساء.

تلاحظ أمك نظراتي للرواية، ترد في وهن:

- "كانت آخر ما قرأ قبل... حين كان يقرأ غير الهندسة"

تصفحْتُ الرواية، رواية عجيبة بحق لذاك الأديب الأعجب، شخصيات كثيرة حكي عنها محفوظ، لكل شخصية صفحتان أو ثلاثة في ما يُشبه سيره ذاتيةً مختصرةً جدًا معنونةً بحسب اسم صاحبها، الرواية محض قاموس كبير لشجرة عائلة عاشت منذ الحملة الفرنسية وحتى حرب السادس من أكتوبر، كنت أعرف فكرة عن الرواية بحكم قراءتي للكثير من أعمال محفوظ المترجمة، الرواية تجعدت صفحاتها من كثرة القراءة، في الغلاف الأمامي، كتب محمود كلمات قلائل:

- "بدأتها في ٢٢/٤/٢٠١٥"

والغلاف الخلفي... هناك كلماتٌ أخرى عن تاريخ إنهائه للرواية و... وهناك رسمة.. رسمة استرعت انتباهي، حدقت بها لخمس دقائق كاملة... و.. فوراً هتفتُ:

- "أمي.. ما هذا الرسم؟... أمحمود من رسم هذا؟"

استغربت الأم لهفتي في السؤال، وقال الأب منزعجًا:

- "هو رسمه بالفعل... هل من مشكلة؟!"

- "متى... متى رسم هذه الرسمة؟"

- "كان يرسمها كثيرًا في كتبه ودفاتره منذ زمن"

ردت الأم ولم تفارق الدهشة محياها إثر تغيُّري المفاجئ،
لكنني كنتُ أشد منها دهشةً بأضعاف مضاعفة.

الرسمه... عجيبة حقًا، تحسبها في البداية تُمثل فراشة
فضية بالقلم الرصاص، جناحين كبيرين متجاورين، أسفلهما
جناحان أصغر، الرسمه متماثلة كفراشة تفرد جناحيها
بالفعل ولكن... دقق النظر معي قليلًا، الجناحان الكبيران..
كل منهما يُمثل شكلًا منفردًا، رسمًا مستقلًا يُمثل حيوانًا، لم
أعرف أن كافكا كان مولعًا بالرسم، لكنني عرفتُ الآن أي قد
كُشف عني الحجاب!

أين كونان الآن.. أين شيرلوك هولمز.. بل أين رفعت
إسماعيل؟ فلتحضروا جميعًا يا سادة وتشاركوني حيرتي!!

فالجناح الكبير الأيمن كان ذئبًا...

والجناح الأيسر كان... كان دُبًّا!!

دب وذئب!... و... وما العمل الآن?!!

دُبُّ وذئبٌ ومحمود كافكا، وأحلام عجيبة تستقرئ
الواقع، حلمي ليس كأني حلم عابر إذن، محمود يرسم دُبًّا
وذئبًا، فيطارداه في حلمي؟! ولماذا الدب والذئب بالذات؟..
محمود كان يُعاني، يبدو هذا من حلمي، هل له معنى
آخر؟!

و... لحظة، جناحا الفراشة السفليان، أصغر قليلاً
ليُعطيا شكلاً أجمل للفراشة، حدقت بهما طويلاً فوجدت..
وجدتهما قطعاً وغباباً! مهلاً!.. هل من حيوانات أخرى؟!
منذ متى ومحمود يرسم هذه الأشكال و... ثمة سؤال آخر
هنا ينبغي أن أسأله:

- "أمي.. من فضلك.. منذ متى ومحمود في الغيبوبة؟"

حدَّق بي الأب في كراهيةٍ! فقد ذكرت حالة محمود
بكل وضوحٍ في حضرة أمه المكلومة:

- "آسف.. لم أقصد، كل ما أريده هو مصلحة محمود"

- "مصلحته؟... وهل سؤالك هذا يعني مصلحته في شيء؟"

قالها أبو محمود في غيظٍ مكظومٍ، وجدتُ نفسي أردد متلعثمًا:

- "ربما، ولكن.. أخبرني فقط من فضلك!"

- "منذ عشرين يومًا.. ارتحت الآن؟!"

أجابني الأب في نفاذ صبرٍ.. وبشيء من الحدة، لا يا عمي، لم أرتح.. ويبدو أنني لن أرتاحٍ لوقتٍ طويلٍ.

لم يزرني كافكا منذ أسقطه الدب في البحر، فقررتُ أنا زيارته! بعد شهرٍ كاملٍ من زيارة المستشفى، وجدتني واقفًا أمام باب شقته... أتأمل الباب بعمقٍ! أتأمل الباب؟!.. ولم لا أفعل؟! لقد بقيت لربع ساعة كاملة أحرق بنياته وشارعه، بعدما تبعت أمه في المواصلات حتى بيتهم دون أن تلاحظني، ما الذي أفعله بالضبط؟ هل جُنت أنا الآخر؟! لا.. لم أُجن، كافكا إصابته نفسية ولا شك.. فلنتحرر الآن ما تبقى من نفسه!

ولامتني نفسي للمرة الألف، تتحرى؟!.. هل تحسب نفسك المُحقق كونان بالفعل؟ وحتى لو افترضنا هذا...

- "عبد الملك... أهلاً و... إلى أين تذهب؟"
تفتح الأم الباب بينما ألوذُ بفرصة الهرب، عدتُ وقلتُ
في ترددٍ:

- "ف.. في الواقع، خفتُ أن تكوني غاضبةً مني!"
تربت على كتفي في امتنانٍ:

- "لا تقل هذا... ولكن.. لماذا أتيت؟! محمود ما زال..
هناك"

- "أعرف يا أمي... سأخبرك بكل شيء.. هل عمي
بالداخل؟!"

- "هو نائم.. كنا ننوي الذهاب لمحمود ليلاً.. أنت
تعرف، لا يمكننا ترك أعمالنا.. ولكن لماذا نتحدثُ
على الباب؟ تفضل يا عبده... كيف تُحب شايك؟"

جلستُ على أحد كراسي الردهة، أشعرُ بهواء مروحة
السقف يُطيب مسامي بعد صهد الشارع، وأفكر في أفضل
ما يمكن قوله:

- "لا داعي يا أمي.. أرجوك اسمعيني فقط... كافكا..."

أعني محمود زارني في الحلم"

كست ملامح الأم الفرحة فوراً:

- "حقاً؟!... زارك؟... وكيف كان؟"

- "هو بخير.. لا أذكر الحلم للأسف... لكنني... لكنني

فكرتُ في طريقةٍ لأساعده بها"

بانة المرارة على وجهها ببطء:

- "تساعده؟!.. كيف يا بني؟! محمود الآن مصيره بيد

الله وحده، لا يعرفون سبباً لغيوبته، مع هذا قد

يفيق في أي لحظة"

وأضافت بحسرة:

- "وربما أيضاً بعد شهرٍ أو..."

- "أمي... أنا قادرٌ على المساعدة لو سمحت لي

فقط!"

- "أنت لست طبيبًا يا عبده على ما أذكر!.. ماذا تقصد بالضبط؟"

- "محمود... محمود مُصابٌ بعملٍ سفلي يا أمي!"

الصدمة.. الصدمة وحدها تملكت أم محمود، بيد أن صدمتي لم تقل عنها في شيء! كيف خرج مني هذا التبرير؟! وكيف وردت هذه الفكرة في ذهني في لحظةٍ واحدةٍ!! كنتُ في حاجةٍ إلى تبريرٍ وجرى على لساني في الوقت المناسب، أسعفني به عقلي فقط، لكنه أحدث التأثير المنشود، رفعت الأم الجزعى يدها لتغطي فمها إثر المفاجأة:

- "عمل.. عمل سفلي؟! ما الذي تقوله؟!"

فلتكمل عملك الآن للنهاية يا عقلي النير، أتحنفي بالمزيد:

- "معظم حالات الغيبوبة تنشأ عن الحوادث العادية، حادثة سير تؤدي لإصابةٍ بالغةٍ بالرأس، ينتج عنها الغيبوبة، أما ولدك فلم يصبه شيء، الأمر يُثير الشك.. هه؟ فلنفكر بشيءٍ آخر، السحر مذكورٌ في

القرآن الكريم، ابنك نابغة وعبقري، أعداؤه كثيرون
ولا شك، حسّاده ومنافسوه، أساتذته الذين استاءوا أن
يهزمهم طالب لديهم!"

كلامي عن أعداء محمود يبدو مُبالغًا فيه، لكن الأم
الواهنة تمسّكت بخيط الأمل الوحيد الذي رماه لها
مجنونٌ مثلي:

- "لا أدري يا بني.. فكرنا في الحسد بالفعل، أجرينا
الرقية الشرعية وننوي عمل الحجامة، لكن السحر
لم يخطر بالناقط، هل تعرف في هذه الأمور؟!"
بدا أن خطتي في سبيلها للنجاح، تشجعت أكثر...
تذكّرتُ كل ما سمعتُ وقرأت عن هذه الأمور:

- "بعض الشيء... هناك العمل المأكول والمشروب
والمدفون، والعمل المكتوب على جلد قرموط!
هناك السفلي والعلوي والربط و... والزايجة.. نعم
والكابالا طبعًا.. الكثير، لا أدري ما أصاب محمود
بالضبط ولكن..."

- "ألم تقل إنه عملٌ سفلي؟!"

- "بلى، هذا مجرد تخمين مبدئي، أحب فقط أن
أتأكد"

- "وكيف ستأكد؟"

- "بالبحث يا أمي.. أريد أن أبحث في أشياء محمود التي يحتمل أن يكون بها العمل، كتبه... دفاتره، كتاباته ورسوماته، تلك الرسمة تعني أكثر من مجرد دب وذئب.. بالطبع، أريد مقابلة أصدقائه والحديث معهم عنه، ومعرفة أعدائه... أريد، أريد أن أتحرّى عن حياة محمود... وأبحث عن الخلل فيها"

أنهيتُ كلامي.. أصمتُ في انتظار الرد، وتصمتت المرأة الكسيرة... تُنكس رأسها حائرةً مفكرةً، تقومُ وتتركني بلا كلمةٍ، ربما لتستشير زوجها، أو تحضره ليطردي بلا رجعة. كافكا.. سامحني يا صديقي، لا أدري هل خواطري حقًا مُجدية؟! أم هي محض هلوسة فكرية عقيمة، كل ما أعرفه.. أنني سأفعل هذا من أجلك، حلمك يُناديني لك ولعالمك، أودُّ أن أقترّب منك ما كان ينبغي أن أقترّبه قبل القطيعة بيننا، أريدُ أن أرى الدنيا بعينك أولاً... ولا أدري شيئاً عما بعد هذا.

لم تتأخر والدة محمود كثيرًا، أقبلت تمسك شيئًا
بيمناها.. أهذه بسمه حزينه تتلاعبُ بشفتيها أم...

- "تفضل يا بني!"

مدت يدها المفتوحة أمامي، استقرَّ بها هاتفُ خلوي
مُغبر:

- "أهذا... هاتف كافكا؟"

تفتعل الأم ابتسامهً أكبر.. من أجل تشجيعي:

- "هو بعينه... لم يعد يرُنُّ كثيرًا كما تعرف.. عليه
ستجد أرقام معارفه"

لانت أساريري.. وحانت مني ابتسامهً شرعيهً:

- "أشكرك كثيرًا يا أمي.. سأفعل ما بوسعي... س...
سأعيده.. أشعر بهذا!"

وكنتُ أشعر بهذا فعلاً! أشارت الأم للغرفة التي دخلتها للتو وقالت بودّ:

- "تلك غرفته... لم يمّسها أحدٌ منذ تركها.. وحيننا كما تعرف، ابحت كما تشاء، أنت الأمل الوحيد لي الآن.. ربما تذكرك لمحمود جاء في وقته، سأعدُّ لك الشاي، بالمناسبة... هل تعرف عكس كلمة ياباني؟"

غرفته... صغيرةٌ تصلحُ لشخصٍ واحدٍ، لكنها بدت لي عالمًا كاملاً من الأسرار، هل أبالغ؟.. أبدأ، نويت أن أعرف كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياته.. هل أقدر؟ سأبدأ بالقراءة.. عشق كافكا الأزلي، مكتبته باهرةٌ بارزةٌ تحتلُّ جدارًا كاملاً، ميّزتُ فيها كعوب فرانز كافكا من بعيدٍ، يُخصص محمود رفًا لكل نوعٍ.. هذا للرعب.. هذا للفانتازيا.. هذا للأدب الساخر، بدأتُ بالرفِّ العلوي، به كتبٌ منوعةٌ لا تخص شخصًا بعينه أو نوعًا واحدًا، تصفحت أول الكتب... عتيقًا مهترنًا:

"الفيزياء المسلمية... الجزء الثاني... ياكوف بيرلمان"

الكتاب الأشهر والأعظم في شرح الفيزياء ببساطةٍ ممتعةٍ، بالطبع... فهو مهندس.. من مثله أولى بقراءة

كتاب كهذا؟ الشخطة والحواشي تملأ الكتاب، كافكا حتمًا من الأشخاص المولعين بملاء أي فراغٍ يرونه، رسومات مفردة لذئاب ودببة فقط، لكن لا ققط أو غربان.. ولا فراشة كاملة، قصدت الصفحة الأخيرة، تاريخ الانتهاء من الكتاب.. يعود لسنة فاتت، آخر أيام عهده بالأدب، أحضرتُ الكتاب التالي:

"البؤساء.. فيكتور هوجو"

"الشحاذ.. نجيب محفوظ"

"هاري بوتر وجماعة العنقاء... ج. ك. رولينج"

"الضفيرة السوداء... محمد عبد الحليم عبد الله"

"بيت الياسمين... إبراهيم عبد المجيد"

"القصص الحكيم... الفيلسوف إيسوب"

الروايات... حبه العتيد، كانت الكتبُ بترتيب القراءة حسب تواريخ الابتداء والانتهاء، إذن فهذا هو رفُّ القراءة الحالية لمحمود، أكملتُ الصف حتى وصلت لروايةٍ أخرى، كانت بعيدةً عن السابقة لها في وقت القراءة، هناك فترةٌ هجر فيها القراءة إذن، لكنه عاد إليها بقوةٍ حتى إنه أنهى خمس رواياتٍ في زمنٍ قياسي هو خمسة أيام بالضبط، وهي بالترتيب:

- السقامات... يوسف السباعي
- منافي الرب... أشرف الخمايسي
- ملحمة جلجاميش
- مجلد نوفيالات... ليو تولستوي

والخامسة كانت حديث الصباح والمساء، كانت آخر ما قرأ كافكا كما ألمحت أمه، هل لهذا معنى ما؟! أسائل نفسي من جديد، هكذا عرفتُ قراءات محمود الأخيرة، ما من كتبٍ أخرى قرأها بعد الحديث.. الغرفة لم تُمس منذ ذاك الوقت، ومكتبته لا أحد يقربها.

التقطتُ الكتبَ وتصفحتها، الدب والذئب في كلِّ مكانٍ ولكن.. القط والغراب، بدأ كافكا برسمها أخيراً في السقامات، ماذا عن الفراشة؟ وجدتها للمرة الأولى في ملحمة جلجاميش، إذن فالفراشة وُلدت مع تلك القصص، لماذا هاته الروايات الخمس بالذات؟ هل لهذا أي معنى؟

إلى مكتب كافكا و... المكتب! أو سطح المكتب المغطى بفرخٍ ورقي كبيرٍ.. لم يدعه محمود في حاله هو الآخر، ازدان برسوماتٍ هندسيةٍ جعلته جديراً بمكتب نيكولاس

أوتو نفسه، مع الكثير من الفراشات المليئة بالدببة
والذئاب والغربان والقطط!! عبارات كثيرة بالعربية
والإنجليزية وحتى اليابانية كتبها كافكا بين الرسومات في
أنحاء الفرخ الورقي:

"يجب ألا ألفظ الأكاذيب"... بالإنجليزية

"ثمة زهور لا تذبل أبداً"

"قم للصلاة يرضى عنك الله"

"الكسل لذيذ بس مش مفيد!"

"حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف!"

"شو كانت حلوة الليالي والهوى يبقى ناظرنا"

"هناك حقيقة واحدة فقط"... باليابانية

"وكأنني أعيشُ في إيقوريا أو مزدكيا أو فرويديا أو

بومبي!!!"

عباراتٌ ليس بينها أيُّ رابطٍ، عدا كلمات أغاني فيروز
المزخرفة، لفتت نظري فقط العبارة الثانية والأخيرة،
فالثانية عبارةٌ شاعريةٌ ملهمةٌ!.. يعتبرها زهرةً لا تذبل،
محمود لديه جانبه العاطفي بكل تأكيدٍ، وبكل كل
التأكيد.. سيكون لهذا الجانب نصيبُ الأسد من بحثي،

السُّرُّ كله هناك ولا بد من البحثِ عن الأنثى كما قال
بونابرت، ماذا عن الجملة الأخيرة؟.. أربعة أماكن غريبة
للعيش فيها! هل هي مدنٌ موجودةٌ بالفعل.. لم أسمع
عنها قط، سجَّلتها سريعًا في المفكرة.

والآن لأدرج محمود الثلاثة في المكتب، الدرجان الأول
والثاني ازدحما بالكتب والدفاتر بما فيها من رسومات
الميكانيكا ومعادلاتها، لا تختلفُ عن ظهر المكتب في
شيء، الدرج الثالث امتلأ بأشياء عديدةٍ تخص الحاسوب،
أسطوانات مدمجة... فأرة... وصلات وذراعات ألعاب، مع
الكثير من عبوات العطر الفارغة كأنه يهوى جمعها،
فتحت دولا ب كافكا، المعاطف الطويلة إياها التي تُذكر
بشيرلوك هولمز، أكثر من معطفٍ بكل الألوان، آليثُ
تفتيشُ جيوبها سريعًا، لعلي أجدُ شيئًا مهمًا، لم أجد
سوى عبوةٍ عطرٍ فارغةٍ كالتى بالدرج.. تلك التي تحتوي
(بليّة)، وهنا تذكرتُ... أنا نفسي رأيتُ هذه العبوة من
قبل.. أفتحها، أستنشقُ ما بقي من شذاها.. أتذكر!

- "كانت وجبةً مشبعةً حقًا.. ومؤلمةً أيضًا.. تبًا لشطة
الزيت.. وتبًا للكشري الذي نصحتني به"

قلتها لمحمود، بينما أخرج هو عبوة عطر من جيبه:

- "أي خدمة؟.. والآن يدك لو سمحت!"

أجيبه مشاكساً:

- "سأسمحُ مضطراً... هي سنة على كل حال...

أريجاتزوه"

يمسح بالبلية ظهر يدي..

- "ما رأيك؟"

أشتمها بعمق:

- "فُل... أليس كذلك؟!"

- "تقريباً!"

- "لم تجد غير الفُل؟!... أنت شاب يا حبيبي.. أين

الهيوجو والسكيب أو حتى المسك الإنجليزي؟!"

عبوة الفُل الزجاجية هذه، أهي في جيبه منذ ذلك الوقت؟!.. مستحيل، هو يُحب العطور إذن بدليل أنقاض العبوات في درج المكتب، لا بد أن أسأل أمه عنها و... ويلي! كيف نسيت أمه، كيف نسيت سؤالها عن كل ما

فات وعن اللغز الأكبر حتى الآن... الرسمة، فلأفعل هذا الآن و... وهنا سمعت زعيق الأب، الأب الذي استيقظ أو أيقظته الأم لتخبره بالضيف، لا أشعر أن الأب سيقتنع بي و...

- "ماذا أتى بسي (زفت) هذا؟"

- "اهدأ يا مصطفى... اهدأ"

يعلو صوت الأبوين، هنا لا بد أن ينخفض صوتي أنا، قنعت بالكنز الرابض في جيبي، خرجت من الغرفة، كدت أفتح الباب وأذهب من نفسي ولكن.. لا بد أن هذا سيصعب موقفني أكثر، وقفت في الردهة هاتفاً:

- "عمي... بعد إذنك... سأذهب الآن"

- "انتظر يا فتى!"

خرج الأب يرمقني في كراهية:

- "عمل سُفلي.. تقول إنه عمل سُفلي، لم لا يكون العمل من صنعك أنت؟!"

- "مصطفى... أرجوك!"

تقف الأم باكية خلفه، تنظر لي معذرة هامسة:

(معلش)

- "هو يريد شيئاً لا نفهمه، لماذا يبحثُ في أشياء محمود؟ لا نعلم أهو صديق أم عدو، اسمعني باحترام يا أستاذ عبد الملك... لا تُرنا وجهك ثانية.. وإلا.."

- "لا داعي يا عمي.. كنتُ مغادراً بالفعل.. آسف على الإزعاج"

واتجهتُ نحو الباب بلا كلمةٍ أخرى، أنظرُ في الأرض أتصبّب حرجًا، لكن هل ألومه؟! له الحق في ظنه، وإن كان لي الحق أيضًا في فعلي... كما أشعر! هل حصلتُ على ما يكفيني من عالم كافكا؟! ليس بعد... هاتفه، منبع أسرار حقيقي كنتُ محظوظًا بلقياه، انتظرت حتى ركبت الحافلة وجلستُ مستنشقاُ الهواء الحار الرطب، أخرجت الهاتف، رأيتُ وجهي أول ما طالعت شاشته، فالخلفية كانت الكاميرا الأمامية نفسها... غريبة، ولماذا تكون الخلفية هكذا؟ بدأتُ أول بحثي في الأسماء عن كلمة (أمي) قبل كل شيء.

- "السلام عليكم... أنا عبد الملك يا أمي"

- "بني... آسفة حقًا و..."

- "لا عليك أبدًا.. أنا الآسف.. أودُّ فقط أن أسألك عن بعض الأمور المهمة"

- "تفضل.. اسأل كما تشاء"

وسألتها عن كل شيء، بدأتُ بالرسمه ومعناها، قالت إنهما كثيرًا ما سألاه عنها ولم يُجب إجابةً شافيةً، قال إنه متأثرٌ بهاري بوتر وشعار مدرسته، أما الكائنات الأربعة في الفراشة فلا يعرفان عنها شيئًا، ماذا عن عبوات العطر الزجاجية؟ قالت إنه يُحب العطور كثيرًا منذ صغره ويحمل معه عبوةً في جيبه أغلب الوقت، السبب... لا نعرف، لن أسأل ولدي عن سبب حبه للعطور... هو يحبها وكفى.

لكن ماذا عن أصحابه المقربين؟ أخبرتني ما توقعته، كان ابنها وحيدًا بلا أصدقاء طيلة عمره باستثناء القليل، هناك صديقه الوحيد الذي يعدُّانه مقربًا له، إذ جمعتهما الصداقة في المدرسة منذ حدثتهما، رغم أن هذه الصداقة خفَّت كثيرًا حتى ليحسبها مُحيت تمامًا، منذ افترق كافكا وصديقه في المدرسة الثانوية وما تلاها من سني

الجامعة وانشغال كل منهما بحياته، الجامعة... بالتأكيد كان لديه زملاء محاضرات و(سكاشن) وما شابه، الجامعة تفرض عليك صداقة أحدهم أو زمالته على الأقل، أخبرني باسم واحد فقط، لا شك أنه صديق الجامعة الذي رأيته من قبل، تضيّق دائرة البحث ولا أعرف أهذا في صالح القضية أم ضدها!... قضية؟!.. قضية الفتى الغائب!

ماذا عن حب الجامعة يا أمي؟ أليس لمحمود فتاة هناك؟ الفتيات... لا يتكلم معهن بالطبع فضلاً عن صداقتهن، لا نعرف لمحمود صديقة.. هذا متوقع، أصحاب محمود... هؤلاء هم مفتاحي لفهمه، خاصة صديق الطفولة هذا، ينبغي أن أقابلهم وأستمع لهم، معي أرقامهم كلها على الهاتف، سألتها شيئاً آخر مهمّاً... كتابات كافكا، كان يقرأ كثيراً فماذا عن كتابته وتدوين أفكاره، تُخبرني أنه يرسم فقط على حدّ علمهما، لا فيس بوك.. لا كتابات في موقع الجامعة، أنا نفسي لا أذكر شيئاً مميزاً قاله لي عن كتاباته، قراءات وحسب.

آخر شيء.. ماذا عن الأماكن الأربعة؟.. إبقوريا ومزدكيا وبومبي وفرويديا؟ ظنت الأم أنني أمزح! هي لم تعرف أصلاً أن أسماء كهذه كتبها ابنها على مكتبه ولو عرفت لما اهتمّت بسؤاله! أنهيتُ المكالمة شاكرًا، وبحثت فوراً

في النت عن الأماكن الأربعة، لم أجد شيئاً عن إبقوريا
ومزدكيا وفرويديا، لكنني وجدتُ آلاف النتائج عن (إبيقور)
(مزدك) و(فرويد)!! الأول فيلسوف غابر والثاني مؤسس
ديانة مندثرة والثالث عالم نفسي بالغ الشهرة!! محمود
اشتقَّ من أسماء هؤلاء أسماءً أخرى لمدينٍ يشعرُ أنه
يعيش فيها! وماذا عن بومبي؟! بالبحث تبين لي أنها
مدينةٌ حقيقيةٌ بالفعل كانت تشغلُ موقعاً من إيطاليا
منذ قرونٍ واليوم هي مدينةٌ أثريةٌ جميلة.. كل هذا
جميل، لكن... ماذا يعني كل هذا؟! عثرتُ على لغزك
الأول الصعب يا كافكا.. ولا أظنه الأخير!

بحثتُ في الهاتف عن أي خيطٍ آخر، لا شيء.. هناك
فقط مجلد الأغاني.. كثيرةٌ جداً، لكن لحظة.. قائمة
المفضل من الأغاني، لنرَ ذوقه في السماع.. لنرَ أي أفكار
راقت له، قائمة قصيرة نوعاً:

"شباكنا ستايره حريره... شادية!"

"سألتك حبيبي... فيروز"

"طوق الياسمين... ماجدة الرومي"

"يا لاللي... محمد منير"

وانتهت القائمة، ذوقه كلاسيكي انتقائي، لم أفهم الكثير..
سأستمع للأغاني فيما بعد وأقرر، ربما خرجتُ منها بشيء،
ينبغي الآن فقط أن أقابل أصحابه و.. هاتفي يهتزُّ في
جيبِي، لا بد أنها دعاء.. أرددُ مشاكسًا:

- "أنا تاني نك تسايشيدس...و هذا يعني أفتقدك
باليابانية على فكرة"

- "كيميمو..عرفتُ أن هذه تعني و أنا أيضًا!"

- "معقول.. تعلمتِ شيئًا باليابانية من أجلي؟"

- "ليت الياباني كله كيميمو فقط وليس أنا تانيك
سوفالديشس!"

- "يكفيانا ان اليابانية و الأسبانية لغتان موسيقيتان يا
حلوتي"

- "حمدًا لله أنني إسباني!"

اسمها دعاء، خطيبتني التي لم أدع فرصة للحاق بها
من يدي، لا أملك من حطام الدنيا شيئًا... إلا الأمل في
الغد! وقد تفهّم والدها ذلك، تحاكيها حتى وصلت
لمحطتي ونزلتُ من الحافلة.

- "لم تُخبرني أين كنت اليوم"

- "أبحث عن سبب صدمة أدت لغيوبة صديقي الراقد
في المستشفى الآن حين زارني في الحلم لعشرين
يوماً"

- "....."

- "لا عليك.. هذا تأثير الياباني فقط!"

إلى سريري.. بلا أحلامٍ كافكاوية، رأسي على الوسادة، غارقٌ في أفكاره، غدًا أقابل صديقه بعد العمل، أعني بعد لقائي مع دعاء، لكن كيف السبيل للقاء كل صديق له؟ هل حيلة العمل السفلي تصلح مع هؤلاء؟ هل يشكُّون في شخصي كما فعل أبو كافكا؟ محمود.. هل ما أفعله الآن له فائدة؟ هل أقرأ في السحر أو أستشير مَنْ يفهمون في هذه الأمور؟! لا لم أكذب الكذبة وأصدقها ولكن... أياكون الأمرُ خارقًا للعادة بالفعل، وماذا عن الحلم؟.. الذئب والذب؟ ماذا عن الغراب والقط؟... والفراشة؟

أنهيتُ عملي للتو، أتصل بالرقم الأول في طريقي لدعاء،
يأتيني الصوت ملهوفًا:

- "الو... محمود؟.. أهذا أنت؟"

أُجيب بتؤدّةٍ، واثقًا في كذبتى البيضاء:

- "لا... محمود ليس هنا، أنا الدكتور عبد الملك،

مساعد الأخصائي النفسي الذي يُعالج محمود الآن،

حضرتك الأستاذ أحمد جميل صديقه المقرب؟"

- "أنا هو.. هل محمود بخير؟.. هل من جديدٍ في حالته؟"

- "بخير ولله الحمد.. أفاق من الغيبوبة و.."

- "حقًا؟!... الحمد لله.. إذن يُمكنني رؤيته و..."

- "للأسف يا أستاذ أحمد.. لم تستقر حالته بعد.. لن

تستطيعَ رؤيته قبل فترة نقاهة مناسبة، نحن الآن

نُحاول تهيئته ليواجه الواقع الذي غاب عنه طويلاً،

نريد سبْرَ أغواره وإدراك معاناته، أنا مُكلف بمقابلة

معارفه المقربين لفهم نفسية كافكا عبر آرائهم،

فهل يُمكنني مقابلتك اليوم؟"

- "فهمت ولكن.. اليوم؟ هناك مشاغل عديدة و.."

- "لن تستطيع مقابلتي إذن..."

- "سأُكلمك إذا استطعت، أنت تعرف ضغط العمل"

صديق الطفولة لديه مشاغل، لا بأس.. لنجرب صديق
الجامعة.. مُهند حمدي

- "محمود؟... محمود معي؟"

مررت بنفس اللفظة.. المفاجأة والدهشة، التعريف
المزعوم بنفسي:

- "تريد مقابلي للكلام حول كافكا؟"

- "أرجو هذا.. وسعيدٌ أنك تُناديه بكافكا مثلي"

- "عرفته سنين الجامعة كلها حتى الآن، لكني للأسف
لن أستطيع مقابلك اليوم.. لديّ عملي مع والدي
ولا أستطيع تركه"

- "ولكن.."

- "آسف... صدّقتني هذا ليس بإرادتي"

- "على الأقل هل تُعطيني موعدًا.. الأمر كله في
صالح كافكا ليشفى بأسرع ما يُمكن"

- "إذن سأقابلك غدًا إن شاء الله... انتظر مني مكالمة"

ومرّ يومٌ.. ويومان، اتصل الثاني ليؤجل الموعد، ولم
يتصل الأول حتى الآن! كنتُ في الحافلة عائداً للبيت،
أراقب المناظر عبر النافذة وأتفكر، صديقه المقربان

مشغولان، الكلُّ لديه عمله وحياته، أم أن عليهما أن يفرغا من أجله؟.. كما أفرغت أنا نفسي لبحثي! نسيْتُ أنني في زمنٍ ينشغل الكل عن الكل، وعبر سماعات الحافلة الرنانة، ترددت أغنيةٌ شعبيةٌ شهيرةٌ وقتها..

- "مفيش صاحب بيتصاحب ... مفيش راجل بقى راجل"

- "بالحق... ما مسلسل الأنمي المفضل لديك؟!"

سألتُ كافكا في يومنا الأخير بالتربية العسكرية، أجنبي على الفور

- "خيالي أم واقعي؟!"

- "وهل هناك فارقٌ بالنسبة لك.. ألا يبقى العملُ جيداً في النهاية؟! ألاحظ أنك تقرأ في كل الأنواع من الأساس"

- "قلتها بنفسك... أنواع، سيظل التصنيفُ قائماً.. هناك الخيالُ والواقعُ مهما تماهينا معهما!"

- "فليكن!... أخبرني عن الواقعي"

- "romeos blue skies"

- "لا أعرفه... يبدو لي روميو هذا يطير في سمائه
الزرقاء بحرملة كأبي بطل خارق!"
- "ليس تمامًا!... على كلِّ حال... رغم أنه واقعي، فهو
خيالي جدًا... خيالي حتى النخاع يا صديقي!"
- "وبعدها معك يا هذا!... كُفَّ عن الطلاسم لو سمحت!"
- "ليست طلاسم.. شاهده وستعرف!"
- "أخبرني إذن عنه... عمَّا يحكي؟"
- "لا بد أن تراه بنفسك.. على كل حال هو يحكي عن
موضوعٍ بسيطٍ جدًا... عن الصداقة!"

- وصلتُ وجهتي غارقًا في ذكرياتي الكافكاوية، أدخل
الكافيه الفاخر لأجدها تنتظرنني ملولَةً في مكاننا المفضل،
دعاء.. تومض هناك بشدةٍ بين ظلمات العالم حولها!
- "تأخرتُ ثانية.. أعرف!"
- "أتعرف شيئًا آخر... أنت مشغولٌ عني كثيرًا هذه
الأيام.. تنشغلُ عن خطيبتك؟.. ماذا جرى في هذه
الدنيا؟!"

لم أنشغل عنك كثيراً يا دعاء، كما لم أنشغل عن
محمود كافكا!

- "جرى كل خير.. وها هو الدليل، هدية فريدة إليك..
بل أربح هدايا!"

قابلت مهند حمدي أخيراً، قصيرٌ مكيرٌ كما يقول
المثل، معقوفُ الأنف قليلاً، ذو لحيّةٍ أنيقةٍ مشذبةٍ، جلس
قبالتي في المقهى الذي اخترناه لموقعه المناسب لكلينا،
يعتذر لي مجدداً بحرارة:

- "صدّقني.. ليس بإرادتي"

- "لا بأس... المهم أنك ستُفيدني بشأن صديقك"

- "في الواقع.. أخشى ألا أفعل!"

- "ألا تفعل... كيف؟!.. ولم؟!!"

- "لأن محمود لم يكن صديقي بالمعنى المفهوم!"

- "!!!"

- "لا تستغرب... محمود لم يكن له يوماً ما ندعوه
بالصديق أو الرفيق! وأنا لم أكن استثناءً يؤكد
القاعدة!!!"

يُواصل مهند تصريحاته العجيبة عن صديقه.. أو ما ظننته صديقه:

- "كما أقول لك.. كافكا منفردٌ بنفسه منذ عرفته.. لو وُجد من يُمكننا وصفه بالذئب المتوحد.. فهو كافكا و..."

- "لحظة!... قلتَ الذئب المتوحد؟... ولماذا الذئب بالذات؟!"

- "وما المشكلة؟!... هذا محضُ تشبيه!... قرأته ذات مرة!"
أضحك بشدة.. وكذا يفعل مهند، أخبرته بفكري ومقصدي.. ردَّ مُتفهماً:

- "هكذا.. تعني رسمته السريالية؟! ليت الأمر اقتصر على هذا فقط، لم يُخبرني يوماً عن مغزى حيواناته

الأربعة، يزعم أن هذا محض تدريبٍ لمهارته في الرسم، لم أصدقه.. لكنني لم أخضع لفضولي في أمرٍ كهذا... فليفعل ما يشاء، يرسم فراشاتٍ عجيبةً.. يكتبُ جملاً واقتباساتٍ مما قرأ.. يحملُ زجاجةَ عطرٍ ثابتةً في جيبه دومًا.. يُحملك في المصحف كل ربع ساعة.. يرتدي خاتمًا ويرميه بنفسه.. يمشي.."

- "لحظة لحظة لحظة... مَنْ قال إنك لن تفيدني؟!.. ولكن لنحكٍ عن كل شيءٍ على حدةٍ من فضلك يا باشمهندس!"

وأخرجتُ مفكرتي، سأدوّن كل ما يبدو مهمًّا، لن أبالغ وأسجل كلمات مهند بالهاتف المخبأ في معطفي! ليس لهذه الدرجة!

وتركتُ الدفة لمهند.. يحكي كما يُحب، يسترجعُ الخواطر ولعل تداعي المعاني يُحدث أثره، هكذا يفعل الأطباءُ كما أحسب.. وأنا الآن طبيبٌ كما أزعم، تغيب عيناه في الماضي.. ناظرًا لأبعادٍ أخرى من خلالي، يحكي لي ما آمل أن يُساعدني، سألته أن يبدأ بالسنة الأولى التي تعرّف فيها كافكا.

- "معرفتي به واحدة في كل السنين، كان وللحق نعم
الزميل، المحاضرات والسكاشن وخلافه، كنا نتبادل
مسؤولية التحصيل فيما بيننا، وعَلاقتنا قائمةً على
العمل أولاً.. مع الوفاء لهذه النية، لم يتأخر عني
يومًا في شرح جزئيةٍ ما، وعاملته بالمثل فيما لا
يضرنا، لم نكن نذاكر معًا... بل هو الشرح السريع
في الجامعة وكفى"

- "ألم تخرجا عن هذا النطاق للحديث حول شيء
آخر؟ خطط المستقبل.. مشكلات كل منكما.. حب
الجامعة.. ماذا عن حب الجامعة؟"

- "فعلنا بالطبع، كما يفعل الموظفون لتلطيف الجوِّ
بين ساعات العمل! مشكلات البلد، السياسة وبعض
الآراء فيها، صعوبة إيجاد وظيفة بعد التخرج، بالنسبة
لحبِّ الجامعة، فلا أحسب أن لكافكا واحدًا!"

- "حقًا؟.. كلُّ منا لديه في الأغلب"

- "لم يُحدثني عنه إن وُجد، يميل كافكا للتدين
بشدةٍ، حتى إنني اندهشت لتسميته نفسه بكافكا،
أليس كافكا هو اليهودي الشهير في الأدب؟ ورفضتُ
بدايةً أن أناديه هكذا، لم أقتنع إلا حين ناداني باسم
شخصيتي المفضلة في الفيزياء، وجددني فخورًا

بهذا.. رغم أن الآخر كان يهوديًا كذلك!.. أينشتاين!
علاقة محمود الوحيدة بفتيات الجامعة هي سخريته
من مظهرهن"

- "المظهر؟.. تعني الملابس والماكياج مثلًا؟"

يضحك بشدة:

- "الملابس بالذات، كانت عيوننا تلقى مناظرهن مهما
فعلنا، يندهش محمود كثيرًا ويُخبرني أن والدته قابلته
يومًا أمام الكلية وعلقت على ملابس إحدى الفتيات
بأنها ليست لمهندسةٍ وإنما لمن تعمل في ملهى
ليلي! كافكا نفسه كان يُخبرني أنه تمنى لو دخل
قسم الحاسبات ليخترع نظارة يرتديها الرجل منا
فتبدل لعينيه ملابس بنات الكلية المعتادة لأخرى
عفيفة! أخبرني كثيرًا عن رأيه في ملابس هذه
الأيام، الطبيعي المعتاد منها صار خليعًا... فماذا عن
التي تقصدُ الخلاعة أصلًا؟!"

- "مشكلةٌ ذكوريةٌ أزيّة، لكن.. كيف ترى تدهوره في
العام الثالث؟ لماذا انفرطَ عقد تركيزه ليرسبَ في
مادتين كما حدث؟"

- "أصدقك القول.. لا أدري، فجأةً صارت المذاكرة
تُجافيه، هذا ما أثار دهشتي بشدةٍ وقتها، سألته

أكثر من مرةٍ عما تغيّر، لكن الإجابة لم تكن عنده! لا تسليم للفروض... لا شراء للملازم، والأدهى نظراته الساهمة دومًا في المحاضرات، أين محمود الذي كان يحضر المحاضرة مرتين وثلاث؟ خاصة في العام الثاني حين نقص عن الامتياز درجاتٍ معدودةً، كان يستغل إعادة المحاضرة للمجموعة الأخرى ليستمتع مراتٍ ومراتٍ، يُضحى بوقته ليفهم أكثر، أما في ذاك العام المظلم، كان يحضر كأنما ترك عقله في مكانٍ آخر، لا يخرجُ بكلمةٍ واحدةٍ، لا أظن أن كافكا أخبر أهله بحقيقة درجاته، لقد نجا بصعوبةٍ من إعادة السنة بكاملها، مع أنها سنة التخصص التي يُذكر فيها الطلبة أكثر من كل السنين الأخرى".

هنا طرأ لي خاطرٌ، سألت مهند مباشرةً:

- "هل اختار كافكا تخصصه برغبته أم ضغط عليه والداه؟"
- "لا أعرفُ شيئًا بشأن الوالدين، غير أن محمود كان يرغب في (ميكانيكا باور) كما أخبرني مرةً، وجدته في النهاية اختار ميكانيكا إنتاج مثلي، سألته عن السبب فهزَّ رأسه بلا اكتراثٍ، النتيجة واحدة والوظيفة عزيزة في كل الأحوال"
- "ماذا عن العام الرابع إذن؟"

- "تغير جذري بزواوية ١٨٠ درجة، كافكا الذي لم يكن يستمع في المحاضرة... صار لا يستمع إلا إليها، روبوت إنساني كما وصفه زميلنا في قسم الميكاترونيك حيث يدرسون الروبوتات! انعزاله عن العالم زاد واستفحل، كلامه معي لم يتعد الهندسة في شيء، تعليقاته الساخرة حول الفتيات اختفت، كأنما هزته الهزيمة المُنكرة في العام الماضي، فقرّر هزم نفسه بكلّ وسيلةٍ، وقد فعل وأدهشنا جميعًا، حطّم رقمًا قياسيًّا لم يحدث في تاريخ الهندسة!"

- "إلى أيّ مدى بلغت غرابة أطواره في تلك الفترة؟"

- "غرابة الأطوار؟.. لقد كان الغرابة ذاتها تمشي على قدمين، كان يبيت أحيانًا في الكلية مُنكبًا فوق كتبه ومراجعته! ساهرًا في كتابة تقرير أو قراءة مرجعٍ، يسأل الأساتذة في أعقد التفاصيل، يحومُ حول المعامل طيلة الوقت، لا يترك المصحفَ من يده، يقول إنه يسعى لحفظه في أقل مدةٍ، الدراسة والمصحف والصلاة... لا شيء آخر، تلهج الكلية بمظاهرات اتحاد الطلبة، وكافكا لا يُحرك ساكنًا، يموتُ صديقنا في حادثٍ مؤسفٍ، يستمعُ كافكا

للخبر صامتًا ويعودُ إلى المرجعِ في يده بلا كلمةٍ
واحدة!"

- "تعني أنه كان في طريقه للغيوبة؟"

- "ربما.. محمود لم يكن على ما يُرام من وجهة
نظري... بلغ مداه في الانعزال عن العالم، لكن بقية
الناس وحتى والديه عزوا الأمر لصدمة الدراسة التي
نالت منه"

هل قلنا كل شيء؟ لا يبدو أن لصديق الجامعة ما
يُضيفه ولكن..

- "ولكن ماذا عن الخاتم.. قلت إنه رماه بنفسه؟"

- "ارتدى خاتمًا فضيًّا جميلًا في سنته الأخيرة، سألته
عنه فردَّ بتلقائية إنه سُنّة، كما يزعم بعضهم أن
الفضة تمتصُّ الطاقة السلبية من الإنسان! ومحمود
أفعمته الطاقة السلبية بعد فاجعته!... هذا كلامه
على فكرة وليس كلامي!"

- "ورغم هذا رماه بنفسه؟!"

- "أكثر من مرة... يتركه على البنش في المدرج كأنه لا يهتم به ويعود ليأخذه من جديد"

- "كأنه يئس من موضوع امتصاص الطاقة!"

- "ربما.. وفي مرةٍ ألقاه بعيدًا على الأرض حانقًا، فالتقطته أنا وتأملمته، كانت ثمرة كتابة على سطحه الداخلي.. كلمة نُقشت بخطِّ ريكٍ كمن يكتب اسم خطيبته، سألته عنها بلا اكتراثٍ متوقعًا إجابةً غريبةً، فقال إن هذا اسم مدينة تركية! فقد جاءه الخاتم من صديقٍ تركي عرفه من البريد الإلكتروني."

- "مدينة تركية؟!.. أي مدينة؟!"

- "لم يترك لي كافكا الوقت لأعرفها.. فقد اختطف مني الخاتم وأعادته لأصعبه ثانية!"

خاتم؟!.. ومدينة تركية؟!... يُمكنني أن أجد الخاتم عند والديه و.. باغتني مُهند بإفساد فكري:

- "إلى أن أضعه كافكا بلا قصد"

- "أضعه... كيف؟"

- "كان ينزِعُ الخاتم عند الضوء، كان مُضطربًا لذلك حتى يُمرر الماء عند موضعه في الأصبع كما يفعل كل مرةٍ، لكن أحد الطلبة أوقعه دون قصدٍ بكوعه

حيث وضعه على الصنبور، سقط وقتها في البالوعة
وحاول محمود الإمساك به، إلا أن الأوان قد فات".

- "هل تأثر محمود سلبيًا بضياعه؟.. ما ردُّ فعله حين
فقدته؟"

- "لا شيء... تسمّر قليلًا يرمقُ البالوعة، ثم عاد
لوضوئه كأن شيئًا لم يكن".

لغزٌ جديدٌ تُصر على إضافته لي يا محمود... غير
أن كل هذا.. يعني شيئًا ما؟ هل العمل السفلي في ذاك
الخاتم إذن؟ كنت ترفضه حين تعودُ لرشدك وتقبله مُرغمًا
بسيطرة السحر عليك؟!... السحر التركي طبعًا، وهل
السحر يقوى بوضع الفُل... الفُل؟!!

- "ألم يُخبرك بشيء حول زجاجة العطر في جيبه؟"

- "لا... يُحبها كما يُحب الرسم! كان عطره المفضّل... لا
يُغيره أبدًا"

- "فُل.. أليس كذلك؟!"

تنهّد مُهند، مُتعبًا من الكلام، مُتذكرًا صديقه بحسرة..
حسرةٍ ممزوجةٍ بالعجب على الصديق الراحل:

- "ليس الفُل.. بل هو الياسمين"

ياسمين.. فُل، لا مشكلة.. فكلاهما واحدٌ بالتقريب.. أم..؟

حكَّ أحمد جميل شعره الكثيف، وقال:

- "محمود كافكا... كنتُ أعزُّ صديقٍ له!"

- "كنتُ؟!"

رددت عليه مُستنكراً، محمود لم يمت بعداً، لِمَ يتكلم بصيغة كان وكنت؟ وما الثقة التي جعلته يقول فخوراً إنه صديق كافكا الأعز؟ قابلته بعد أسبوعين من المحاولة الأولى للقائه! وجهه مُريحٌ نوعاً، شبيهٌ بالمثل أحمد حلمي لو دققنا النظر، عويناته رفيعة أنيقة بلا إطار، يردُّ سؤالي بأريحية:

- "أقول كان لأنه لم يعد كذلك، محمود هجرني..

بالأحرى هجر الدنيا كلها، أتكلم عن المعارف

والأصحاب بالذات، لم يعد باقياً على أحدٍ، لا

تحسبني أبالغ حين قلتُ إنني كنتُ أعزُّ أصدقائه،

هو أخبرني بهذا أكثر من مرة، كان أوفى من عرفتُ
في حياتي، حتى جاء اليوم الذي تظاهر فيه أنه لا
يعرفني من الأساس!"

- "وكيف كان ردك حين يُخبرك أنك أعز أصحابه؟"

- "بصراحة.. كنتُ أقول له... أعرفُ هذا!"

ضحكتُ من صراحته المُفرطة، هو أيضًا ضحك حتى
دمعت عيناه!

- "لا تحسبني نرجسيًا... لكن هذه حقيقة، كافكا كان
يُحِبُّني أكثر مما أحبه"

- "ولماذا تغير هكذا وهجرك كما تقول؟"

- "لأننا انفصلنا في الثانوية العامة، لم تجمعنا سوى
الدروس الخصوصية بين الحين والآخر، كنتُ أعرفُ
أن هذا سيحصل"

- "كنتَ تعرف!.. ولكن لماذا؟!"

- "هي طبيعة الحال.. جمعتنا الظروفُ ثم فرقتنا..
هكذا الدنيا"

أطرقتُ لوهلةٍ مُفكرًا في كلماته، فعلاً جمعتنِي الظروف
أيضًا بمحمود، لكنها لم تُفرقنا.. محمود من افترق عني..
أنا الآخر، أم أن..؟

- "حدّثني عن صديقك.. قبل أن تفرقكم الظروف..
وحتى أنكرك بشدة"

كافكا.. ذاك الطفل الغريب، أتذكره في طفولته كأنها
البارحة، يُحب العزلة كثيراً، وتُحبه العزلة بنفس القدر،
لم يشاركنا في (عسكر وحرامية) أو حتى (فتّحي يا وردة..
قفّلي يا وردة) حين كنا في روضة الأطفال، وعندما اشتد
العودُ وبلغنا الصبا، لم يُحب مركز المدافع الذي يُجيده
نوَعًا في كرة القدم، اغتنى عن كل هذا بألعابه ودُمّاه،
وقصص علاء الدين وسلاحف النينجا التي تُوزع مع
الكتب الخارجية، تسمّر كثيراً أمام سبيس توون وغيرها
مما يُحرك الخيال، انتقل من (صرخة الرعب) لما وراء
الطبيعة، انتهاءً بالكتب الضخمة التي لم أكن أجاربه فيها،
هاري بوتر ودان براون وما شابه، فكان اسم كافكا الذي
عرفناه به.

محمود كان إنسانًا خياليًا جدًّا لو صحَّ التعبير، يبدأ
من الخيال وإليه ينتهي، يُحبه وينأى عما سواه، أتعرف
ماذا أظنه كان يفعل في غيبوبته؟ يحلمُ بسابق ولاحق أو
رفعت إسماعيل وكل أبطاله في الخيال، ماذا تنتظرُ من
شخصٍ لا يُذكر قصص اللغة العربية والإنجليزية، لأنه

يحفظها من كثرة القراءة؟ عشق ألعاب الأتاري قبل الحاسب الآلي، أليس جهاز التحكم في يده هو واسطته لعالم الخيال هناك؟ كأنها وُلد لعالم آخر غير عالمنا، عاش محمود بيننا كأنه لم يعيش، كنتُ أشاركه كثيراً في عالمه، بقدر حبي للخيال، القدر الطبيعي لدى أيِّ إنسان.

لأنني كنتُ بخلافه، أعيش الحياة كما ينبغي، أحترف الكُرة بشدةٍ، يُحبني الآخرون ويُحبون صداقتي، اهتممت بعالمي كما اهتم محمود بعالمه الافتراضي، احتلت حوائط غرفتي صور (روبرتو كارلوس) و(رود فان نيستلوري)، بينما خلت حوائط غرفته من أي شيء، فعقله مزدحمٌ بشخصياته وأبطاله.. يُحدثهم ويُحدثونه، تبادلتُ معه الروايات وشرائط الأتاري، بالعكس.. كنتُ أقرأ الروايات التي يشتريها أولاً بأول وأعيدها له! أما هو فلم يستغنٍ عن امتلاك مفاتيح أبواب عالمه وليس محض استعارتها وإعادتها، متى انتبه محمود للعالم المحيط به، للناس والمعاملات والأُمور الأخرى؟.. لا أحسبه فعل سوى في مراتٍ معدودةٍ.

أولها كانت مرحلةً محتومةً اسمها (هند)، زميلتنا في المرحلة الابتدائية، أحبها كثيراً بصفيرتها السوداء ووجهها القسيم، حب الطفولة كما تعرف، هل فعل شيئاً ما بصدد ذاك الحب؟ مثل جواِبٍ غرامي ساذج الكلمات حار

العواطف بخط طفولي من قلبٍ مرفرفٍ بريء؟ لم يحدث للأسف، لم تكن لديه الشجاعة، لم تجمعها الكلماتُ بهند سوى حين تطوَّع ليشتري لزملائه في الفصل ما يُريدونه من كاتنين المدرسة، فقصد هند كأول من قصد، هل عرفت هند ما يعتمل في قلبه الغضُّ؟ ربما لم يحدث لأن محمود لم يكن الوحيد الذي عشقها، إلى أن تركت المدرسة بعد إنهاء الابتدائية.

أما (سميرة) حُبّه الثاني فعرفتُ بالقطع، عرفها في سنته الأخيرة من المرحلة الإعدادية فيما كانت هي في الرابعة الابتدائية! تحجَّج محمود أن الحب لا يأبه للسن أو للشكل! بيد أن الشكل ظل معه كما هو، الضفيرة الآسرة والملامح الخلابه، أحب محمود الجمال كما أحبَّ الخيال، ذكر لي آخر ما ذكر أبياتًا تُنسبُ للإمام علي كرم الله وجهه... تلخص الكثير من نظرتِه للأمور، أذكرها لسهولتها ولطرافتها، فيمكن قراءتها أفقيًا أو رأسيًا:

أخونُ صديقي وَهَذَا مُحَالٌ
صديقي أحبُّهُ، كَلَامٌ يُقَالُ
وَهَذَا كَلَامٌ بَلِيغُ الْجَمَالِ
مُحَالٌ يُقَالُ الْجَمَالُ خِيَالٌ

- "لكنه خانك كما يُوحى كلامك.. فكيف يقول أخون صديقي وهذا مُحال؟"
- سألتُ أحمد مُقاطعًا، حقًا لماذا انقطع عنه.. عن صديقه الأعزُّ؟ يُجيبني مُزعجًا:
- "لم يحدث.. لم يخني محمود، متى قلتُ هذا؟!"
- "ألم تقل إنه هجرك... وهجر كل صحبه؟!"
- "بلى ولكن.. لم تكن خيانة! كان هجرانًا مشروعًا.. انشغال بالدينا وأمورها... فهمتني يا دكتور؟"
- "لم يخنك كافكا... فهمت هذا، أكمل بعد إذنك.. ماذا تم مع سميرة ذات الضفيرة هي الأخرى؟ كيف عرفها كافكا أصلًا وهي أصغر منه هكذا؟"

لم يحدث الكثير، تكلم محمود مع (سميرة) مراتٍ عديدةً إذ رافقته في حافلة المدرسة، جرى الكثير من المزاح واللعب كما تسمح المواقف، (أتوبيس كومبليت) وغيرها من التسالي، يحيكي لي عنها كأنها أميرته المتوجة.. مُتربعة على عرش قلبه، بالفعل لم يكن يذكرها في حديثه سوى بأميرتي.

لا شك أنه جعل من حبه مرتعًا خصبًا لكل الخيالات
الممكنة، قصص الحب الذاتية البديعة، العفيفة بالقطع؛
فكافكا كان يُنزه حبه كأسمى ما يتخيل المرء، كنا وقتها في
بداية البلوغ والمشاعر الحائرة المتأججة، وكنتُ أذكرها في
سياقٍ حديثي عن هذه الأمور، كأن يعلن محمود حانقًا:

- "اليوم استيقظت على حمّام باردٍ.. تَبًّا للأحلام"

- "لماذا يا شقي؟.. هل حملت بسميرة ليلاً؟..
بوهاهاهاهاها"

فيزغر لي ويرمقني بأقصى علامات الاحتقار!

- "اخرس!"

ففي خياله، أنقذ أميرة عشرات المرات من ميتاتٍ
محققةٍ، فدى عنها السهام في غابة شيرود، تلقى طعنة
السيف من الأوركس بدلاً منها، حملها طائرًا في سماء
متروبولس أو جوثام سيتي، محمود قدّس حبه بشدةٍ،
الحب الأفلاطوني إذ يلتحم مع الرجولة الغضّة، لكن كل
هذا انتهى، برحيل سميرة هي الأخرى بعد ترك المدرسة
والانتقال للثانوية العامة، افترق عنها كما افترق عني،
سميرة كانت تُكلم الكثير من الأولاد كذلك في سنّها

الصغيرة.. العاشقون لجمالها مثله، ربما لم يجد محمود لنفسه مكانًا بينهم وحسب أنها لن تختارَه.

انتقلنا للثانوية، ومحمود يكتشفُ هذه الحقيقة ببطءٍ، عليه أن يُذاكر، عليه أن يُرضي ربه كي يوفقه، لم يكن محمود من المُصلين وإن صلى فتراتٍ متقطعةً في طفولته، فصلّى في الثانوية وذاكر، وفعل ما بوسعه حتى نال ما استحقه من خير بجدارةٍ، كنتُ أظن أن مكانه الصحيح في كلية الإعلام أو الآداب لِحبه للأدب والقراءة والخيال، لكنه مع المجموع الكبير الذي يريمه أي طالب، التحق بكلية الهندسة مُخيراً أو مُجبراً، وهناك انتهت صداقتنا تماماً، فلا مدرسة تجمعننا ولا حتى دروس خصوصية وما من شيء آخر، كانت القطيعةُ الأخيرةُ خاصة بعد ذلك الموقف البسيط و...

- "موقف؟!.. أهنالك موقفٌ مُعين أدى إلى القطيعة؟!"

- "ماذا بك؟.. أنت تُربكني يا دكتور!"

- "آسف... أنا فقط أقتنصُ اللحظات المؤثرة في

حياته، قد يقودنا هذا لشيء، بالمناسبة.. أتعرفُ

شيئاً عن رسمة محمود؟!"

- "أي رسمة؟... لا أعرف شيئاً عن محمود في الجامعة"
- "سأخبرك ما فيها.. تابع الآن من فضلك... لن أقطعك
ثانيةً"

كان موقفاً بسيطاً جداً كما أحسب... هذه طبيعة
الأمر، اتفقنا أن نتقابل في مكانٍ ما، وانشغلت في ذلك
اليوم، لم أتصل به حتى لا أغضبه بعدم تمكيني من لقائه،
فاتصل هو بي فضغطت زر أنني مشغول، كنتُ مشغولاً
بالفعل، وحين فرغتُ من انشغالي بعد يومين كَلَّمته في
الهاتف لكنه كان بارداً جداً في حديثه:

- "لا بأس يا أحمد.. حصل خير، فلنتقابل يوماً ما!"

هزرتُ رأسي شاكراً لتفهمه، بعدها حاولتُ الاتصال به،
كان يُرد بكلماتٍ مقتضبةٍ سريعةٍ، يقول إنه مشغولٌ هو
الآخر لهذا لا يتصل بي، ومرّت الأيامُ وانشغل كلانا أكثر ولم
نعد نلتقي أو نتحدث في الهاتف، حتى جاء اليوم الذي
كَلَّمته فيه فلم يعرفني! تخيّل هذا معي.. المفترض أنه
يعرفني من صوتي فقط... سألني مَنْ أنا! وحين أخبرته
مُندهشاً أنني صديق عمره، فسّر ما حدث بأنه ضغط

الكلية الرهيب عليه بعد أن انتكس بشدة في العام الماضي،
لم أصدّق نفسي وقتها، يا لما تفعله بنا الأيام والسنين!

حُبُّ الجامعة؟! لا أعرفُ عنه شيئاً، لكن يبدو أن
محمود أقحم نفسه في حبِّ مُستحيلٍ، كان هذا في السنة
الأولى بعد الثانوية، كنتُ أصادقُ منذ طفولتي العديدَ من
النصارى، خاصة في ملاعب الكرة في المدرسة والمنطقة، وممَّا
كان محمود يعرفُ هذا عني، اتصل بي يوماً- قبل أن يُنكر
معرفته بي- ليسألني آخر ما أتوقعه منه:

- "أحمد.. هل صليبتُ المسيحيين على اليد اليمنى أم
اليسرى!!!"

ذهلتُ من سؤاله، يتصل بي بعد كل تلك الشهور لهذا؟!

- "اليمنى يا حودا... لكن لماذا تسأل!!!"

- "للأولاد والبنات يا أحمد!!!"

- "للاثنين يا عم كافكا... إيه الحكاية يا نمس!!!"

لكن محمود لم يُفصح بأكثر من هذا، لم يُخبرني أكثر
عن سرِّ استفساره لكنني خمنتُ بالطبع، محمود المتدين
يقع في حبِّ كهذا؟! يا لهذه الدنيا! بعدها لم يُكلمني
محمود لشهورٍ أخرى! انشغل كلُّ منا بديناه مجدداً.

تسألني عن حيوانه المفضل؟ القط بالطبع، محمود
يُحب القط بشدةٍ ويراهما أجمل ما خلق الله بعد
الأنثى، لبتك رأيتَه حين مات القط الذي يُطعمه بجوار
المدرسة، وكأنما فارقه صديقٌ عزيزٌ، دموعٌ وحزنٌ وكآبةٌ!
الغراب؟.. لا أعرفُ شيئاً عنه، ماذا؟!... الذئب والدب؟!
قُل كلامًا معقولًا! كافكا كان مهندسًا وليس دارسًا لعلم
الحيوان، مدينته المفضلة بتركيا؟ لم يأتِ بسيرة تركيا منذ
عرفته ولا حتى في لعبة عواصم البلاد، خاتم فضي؟... لم
يحدث هذا، لم ألمح لمعة الفضة في يده أبدًا.

متى رأيتَه آخر مرة؟! بالصدفة في الشارع.. ملحته فقط،
لم أخرج نفسي بالسلام عليه لئُنكرني مُجددًا، كان مُتغيرًا
بكثيرٍ عما عرفته، طالت لحيته وبان عليه التقى والورع،
لو كان لي أن أنصحه وقتها، لأمرته أن يعودَ لصوابه، أخشى
عليه أن يتخذ الجلباب والطاقيّة في المرة القادمة!

- "بالمناسبة.. لماذا لحيتك طويلة يا دكتور؟"

لحيتي.. طالت قليلًا، نسيْتُ حلاقتها اليوم، لكنني
وجدتُ نفسي أردُّ سؤال أحمد جميل هكذا:

- "لا شيء.. أنا فقط أقلد جيفارا!"

- "شكرًا أستاذ أحمد.. أظن أنني سأجلس بالمقهى قليلاً.. يُمكنك الانصراف"

وقفتُ مُصافحًا من كان أعز أصدقائه، ذهب وتركني... لحيرتي، والأكثر من الحيرة.. الفهم.. البحث.. الربط، الشكوك تتكاثرُ في صدري.. تُمنيني بالنتائج وتحجم عنها في ذات اللحظة، كافكا... هل بدأ شيء من ضبابك ينقشع؟ لا؟.. فما بال هذا الأمل يتطرق إلي... يتزايدُ بين عيني، حملقتُ في مفكرتي... كتبتُ الكثيرَ من الفقراتِ في الصفحة الصغيرة، ربطتُ بين الكلمات حتى تكوّنت شبكةٌ معقدةٌ أمامي، لكن الشبكة في ذهني كانت أكثر تعقيدًا بكثير، شربت جرعة الشاي الأخيرة وناديت النادل للحساب، دفعت المال ومشيتُ مُغادرًا المقهى، شاردًا... سادرًا في أفكارِي.

هل عرفتك بالقدر الكافي يا كافكا؟! عرفتُ عنك
الكثيرَ ولكن.. حُبك، أظنه سيُقدم لي الأكثر، لكن أين
حُبك؟!.. أين عساني أجده؟ وركبت الحافلة، أتفكر وأتذكر،
الحافلة مظلمة.. شبه فارغة، في مقعدي فردتُ المفكرة..
أنظرُ في الظلام، أخرجتُ هاتف كافكا.. اخترتُ أغاني قائمة
المفضلة، استمعتُ عبر سماعة الأذن مُحاولاً الانتباه مع
نظري في المفكرة، يأتي نورُ الشارع من حينٍ لآخر، يمرُّ
كشعاعِ برقٍ بطيءٍ عبر النافذة، ويُتيح لي رؤيةً مُتقطعةً
بخيلةً لشبكة الأفكارِ هناك، تدوي كلماتُ نزار قباني في
أذني بصوتِ ماجدة الرومي العذب:

- "شكرًا لطوق الياسمين.. وضحكت ساخرة له..
وظننت أنك تعرفين"

تحومُ كلماتُ المفكرة أمام عينيَّ مع كل ومضةٍ نورٍ..
ضفيرة.. صليب.. لحية.. جامعة.. جميل.. قط...

الأغنيةُ التاليةُ كانت لمحمد منير:

- "أول دخولنا الجنية.. عيط الياسمين يا لالالي،
والسيسبان اشتكى والورد قال ده مين يا لالالي"
حمدي.. ذئب.. ميكانيكا باور... غراب.. ياسمين..
زهرة لا تذبذب أبدًا

وتشدهو شادية بين أفكارى

- " والنسمة تلعب بينا وتجيننا وتودينا.. نصح على
فرحة وردة وننام على نور ياسمينه"
هند.. فل.. عطر..

والأغنية الأخيرة كانت لجارة القمر فيروز.. هل ستقول
هي الأخرى؟

- " ويا دنيا شتى ياسمين... عاللي تلاقوا مش عارفين..
ومن مين خايفين"

معقول!؟

انتهت الأغنية.. وأخرجتُ هاتفى فوراً من جيبي،
أحاول اختيار الرقم في عجلة.. من الأسماء.. بل من
السجل.. بل من الأرقام الأخيرة، الفكرة.. كأنها ستهربُ
مني إن لم أسرع، الرقم أخيراً.. مهند حمدي، يُضيء الاسم
على شاشتي ريثما يرنُّ الجرس، رُد يا مهند.. رُد أرجوك...

- "الو.."

- "مهند... معك المترجم عبد الملك.. أخبرني من فضلك، محمود كان يُريد اختيار ميكانيكا باور في البداية.. أليس كذلك؟!"

- "المترجم؟!.. ألسـت الدكتور عبد الملك؟!!!"

ويـلي.. تَبًّا للعجـلة، هـي حَقًّا مـن الشـيطن بلا شك!

- "بلى أنا هو.. رسالتي في ترجمة الحركات والإيماءات لمدلولاتٍ نفسيةٍ، لهذا يُسمون وظيفتي المترجم، والآن هـلا تُجيب سؤالي؟"

- "فعلاً كان يبغـي هـذا القـسم قـبل أن يُغـير رأـيه"

- "إذن.. هل أجدُ عندك رقم زميل لكم في ذلك القسم؟ أريد سؤاله عن شيء ما"

يُفكر مهند قليلاً، أنتظره على جمرٍ بينما تتردد
ضوضاء الشارع من حولي:

- "حمزاوي.. محمد حمزاوي، أظني املك رقم هاتفه.. لحظةً واحدةً.. ها هو.. اكتب معي!"

وأملاني الرقم، شكرته وطلبت الرقم الآخر بلا انتظار،
جاءني الصوتُ السحري عبر الخط:

- "ألو.."

- "باشمهندس محمد حمزاوي؟"

- "نعم تفضّل"

- "معك الدكتور عبد الملك شريف... أنا أشرف على حالة زميلك محمود كافكا.. أعني محمود مصطفى"

- "كافكا.. أتذكره بالطبع، ولكن ماذا أصابه بالضبط؟... سمعنا الكثير من الإشاعات عنه"

أشرح في صبرٍ نافذٍ، أخلقُ قصةً جديدةً مقنعةً باقتضابٍ، مقنعةً بالقدر الذي يُهدد لسؤالي القادم و... أخيراً:

- "سأسألك سؤالًا واحدًا يا باشمهندس، استشففته من جلسات علاج كافكا، تجبيني فقط بنعم أو بلا وبعدها نتكلم في الخطوة التالية"

- "تفضل!"

سحبتُ نفسًا وأخرجته بسرعةٍ، استعددتُ للسؤال الذي سيعني أنني قد وصلت لشيء ما أم أنني أحرق بالكلية:

- "هل لديك في الدفعة زميلة فاتنة ذات ضفيرةٍ تُدعى ياسمين؟"

يصمْتُ حمزاوي قليلاً، أكاد أسمعُ دقات قلبي..
محطتي فاتت.. لا يهم:

- "كافكا أخبرك بهذا!?"

- "أخبرني أنت فقط... هل هذا صحيح?"

- "بالفعل.. ياسمين عماد.. أجمل فتيات الدفعة!!!"

فتاتك يا كافكا.. وجدتها! وردتك التي لا تذبل
إذ حملت اسم أجمل الورود بالفعل! فاتتك النابهة
التي عشقتها وعشقت كل ما يمت لاسمها حتى الأغاني
والعطور! هي الآن تتدرب كمعيدة في جامعة خاصة ضمن
نشاط طلابي، ربما تحولت لآلة مذاكرة في عامك الأخير
من أجلها يا بطل، كي تصير مُعيدًا أنت الآخر، هل هي
عقدة أن تكون أقل منها درجات هي ما دفعتك لكل
هذا؟ كيف أكون أقل في المستوى العلمي من حبييتي؟..
لكنها حبييتك فما المشكلة؟ أم أنها حبييتك بلا كلماتٍ
معها كهند؟

سنعرف كل شيء؛ فأنا لم أضيع وقتًا يا صديقي، ها
أنذا في الجامعة الخاصة أسأل في النشاط الطلابي عن
المحاضرة ياسمين عماد، أجدها في السكشن الذي شارف

على الانتهاء، أنتظرُ خارجًا ريثما ينتهي، وأقضي الوقت في تتبع أَلغازك يا كافكا! كيف؟!.. بتصفح بريدي الإلكتروني على الهاتف، رائع!.. جاءني الرد على الرسالة! أي رسالة؟! الرسالة التي تحوي سؤالاً مهمًّا عن العلاقة بين (إبيقوريا) و(مزدكيا) و(فرويديا) و(بومبي)، أرسلت السؤال لأستاذ تاريخ بكلية الآداب، شرحت له فيها الموقف على أساس أن الكلمات وردت في مقالٍ قديمٍ لكاتبٍ ياباني وأحب أن أفهم مغزاها، لنرى ما يقوله أستاذ التاريخ:

- "يبدو أن الكاتب في مقولته هذه ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه، فالرابط بين الكلمات الأربعة من حيث الأصل هو الإباحية الجنسية الصريحة في كل كلمةٍ، فديانة مزدك وفلسفة إبيقور ونظريات فرويد، كلها تشتركُ بشكلٍ ما في الإباحية والدعوة لها، تمامًا كما حدث في مدينة بومبي الرومانية إبان القرن الثامن عشر".

هكذا إذن؟!.. هذا يتفقُ مع سخريته من ملابس فتيات كليته! هكذا عرفنا علاقة وحلنا لغزًا، فماذا عن

العلاقة واللغز الآخر؟! الروايات الخمس التي لم يقرأ بعدها شيئاً، فلأطلب رقم خطيبي دعاء على الفور:

- "المحقق كونان يتصل بي؟!.. هل انتهت القضية أم ليس بعد؟"

- "ظهرت أدلة جديدة أيها المفتش دعاء، هل انتهت من قراءة هدايك الأربع؟"

- "انتهيت يا أستاذ، أي هدايا هذه؟"

- "ماذا بها يا حبي؟ هل وجدت شيئاً يربط بين الروايات كلها؟"

- "وليتني ما وجدته، أتدري ما الرابط؟.. إنه فال سيئ منك يا عبده"

- "أخبريني بالله عليك"

- "الموت!... الروايات الأربع تفوحُ برائحة الموت! السقامات وجلجاميش تقصدان الموت مباشرةً، ومنافي الرب تحكي عن كواليس الموت خاصة الدفن والقبر، حتى مجلد تولستوي يحتوي قصة عن الموت اسمها موت إيفان إيليتش".

- "انتظري... حديث الصباح والمساء هي الأخرى تحكي عن الحياة والموت.. خاصة الموت كما جاء في المسلسل، رائع يا دعاء رائع!"
- "ما الروعة في الموضوع؟ هل تكتبُ ورقةً بحثيةً عن الموت في الأدب أم تنوي إصابتي بالفالج يا..."
- "دعاء.. معذرةً يا حبيبتي، وداعًا الآن فمديري في العمل قادمٌ! سلام سلام!"
- "المدير أهم مني؟!.. أنا أيضًا لديّ مديري على فكرة!"

إذن.. فقد قرأ خمس روايات عن الموتِ في خمسة أيام، كان مشغولًا بالتفكير بالموت لهذا الحد؟ هذا يُذكرني بشيء ما، أتصل برقم أم محمود فورًا، بعد التحية أسألها مباشرة:

- "أمي.. هل مات لمحمود صديق أو قريب منذ حوالي سنة؟"

أي منذ قاطع الأدب، أي منذ قرأ روايات الموت
الخمس، منذ بدأ برسم الفراشة كاملة بقط وجراب،
تصمتُ الأم لوهلةٍ:

- "بالفعل يا بني.. (مها) رحمها الله ابنة عمته الشابة،
رحلت بسبب المرض الخبيث"

- "هل حزن عليها بشدة؟"

- "بالطبع.. كلنا فعلنا هذا، محمود مكث في المسجد
يومه بالكامل حين عرف الخبر"

- "وما رد فعله حين تذكرونها؟"

- "لا أفهم قصدك.. بالطبع نترحم عليها"

- "أعني هل يصمتُ أم يبكي مثلاً؟"

- "في الواقع يصمتُ.. محمود لا يبكي كثيراً مؤخراً،
لكن.. كيف عرفت هذه الحكاية يا عبده؟"

حللنا لغزين.. والآن إلى اللغز الأكبر، انتهى السكشن..
وتوافد الطلبة الخارجون، صاخبين مُتمهلين في الممر الذي
ازدحمَ بالفصولِ المماثلةِ، ظلت معيدةً المستقبل المنشودة
بالداخل قليلاً حتى استبطأتها، وحين ذهبتُ لألقي نظرةً،
وجدتها تُواجهني إذ اقتربت خارجة في نفس اللحظة.

لله درُّك يا كافكا!... لله درُّك يا أبا ياسمين حين
سميتها هكذا! ما كذبت وما بالغت! خدعونا فقالوا إن
بنات هندسة (غفر)! هُنَّ لسن غفراً أو جميلاتٍ حتى،
هن ملكات جمال بلا شك! لكن ما هذه الملابس؟!
خفيفةٌ شفيفةٌ، تُغطي مساحةً قليلةً من الذراعين! فهمت
!.. لهذا أحبها بالشتاء وكرهها بالصيف! غير أن الجينز لم
يكن ضيقاً كالعادة، بل واسعاً فضفاضاً، كأنها لم تقصد

الإغراء الكامل، كأنها طبيعتها المتحررة وحسب، كانت فتاته واحدةً ممن يسخر منهن؟!

غديرتها ذيلُ الحصان تتأرجحُ خلف ظهرها.. لهذا كان يظنها مسيحيةً! بشرتها البيضاءً وأنفها الدقيقُ، جمالها يميلُ للغرب كأميرات ديزني! لم آتِ هنا للتغزل في حبيبتك يا محمود، أنت معذورٌ حتمًا.. مثلي، هذا الوجهُ خلق ليُحبه من يراه، تماكنت نفسي بسرعةٍ، كأني أفقتُ أخيرًا من صدمة الجمال المبالغ فيه الذي باغتني، خرجت متجاهلةً نظراتي المبهوتة كأنها اعتادت مثلها، لحقت بها:

- "باشمهندسة ياسمين.. لحظة من فضلك!"

التفتتُ موجهةً نظراتها المتسائلة- الممتعضة نوعًا!- قبل كلماتها:

- "نعم؟"

- "أنا الدكتور عبد الملك شريف... أشرف على حالة زميلٍ قديمٍ لك... أظن أنك تعرفينه"
تغيرت ملامحها بسرعةٍ إلى الدهشة البحتة:

- "زميلي؟!.. أي زميل؟"

- "زميلك المدعو محمود مصطفى.. المعروف بمحمود كافكا"

بان الشك والضيق في وجهها، قالت في برود:

- "هل هذه مزحة؟! ما دخلي أنا بالأمر؟"

- "إذن فأنت تتذكرينه، أنا طبيب الامتياز مساعد الاستشاري النفسي الذي يُعالجه، محمود في حالة نفسية بالغة السوء، هو لدينا الآن في المصحة، لا لم يُصبح مجنونًا، أنتِ تعرفين تعب الأعصاب، فقط كنتُ أودُّ الحديث معك قليلًا عن علاقتك به، قد يفيدنا هذا في علاجه"

تُحدِّق بي بلا تعبير، تقولُ بنفس البرود:

- "هو من أخبرك باسمي إذن؟"

- "لا.. أعني نعم، عرفتُ هذا من مذكراته.. نعم مذكراته!"

نظرتُ في الأرض لوهلة، ثم:

- "دكتور... هل لي أن أطلع على كارنيه الكلية الخاص بك؟"

لم أتوقع هذا.. وبُهِت الذي كذب، لاحظتُ هي ذلك.. رمقتني بازدراءٍ ثم تركتني دون كلمةٍ واحدةٍ، لكن.. لكن

لحظة.. لم أنته بعد، لا بد أن أعرف ما حلَّ بكافكا مع حبه، أكانت هي السبب في صدمته؟ هل فشل في هذه التجربة فانتهى به المطاف لهذه الحال؟! لن يتوقف بحثي هنا.. لن يتوقف، أخرجتُ كارنيه الكلية وكارنيه العمل ولحقت بها مجددًا:

- "باشمهندسة.. أرجوك، استمعي لي فقط"

تستديرُ بسرعةٍ في اتجاهي، تهتفُ في انفعالٍ:

- "هل أنادي لك الأمن؟ فلتتركني لحالي وإلا..."

أبرزُ لها الكارنيهين وأقول مسرعًا:

- "أنا لستُ لَصًا أو قاتلاً... ولا أتسلى بك حتى، أنا

تخرجتُ للتو من كلية الألسن... محمود هو صديقي،

صدِّقيني هو الآن في أسوأ حالٍ و.."

- "أعرفُ ما حصل له"

- "حقًا تعرفين؟!"

- "أعرف.. أخبار نبوغه بلغت كل مكانٍ في الكلية، ثم

أخبار سقوطه في أزمةٍ عصبيةٍ أو ما شابه، أعرفُ كل

هذا.. لكن ما علاقتي أنا به أصلًا؟!"

- "أنا الذي بحثتُ عنكَ لأسألكَ هذا السؤال، عشر دقائق فقط من وقتك، تُساعديني بها، أنا صديقه فعلاً.. هاتفه معي ويُمكنك التأكيد من والدته و.."
تضحكُ لكلماتي:

- "أعلمُ أنك صديقه! ليست المشكلة هنا"

- "ما من مشاكل صدّقيني.. لنبقى هنا ريثما تحكي لي فقط عن تجربتك معه وأذهب لحالي"
تصمتُ للحظة، تستندُ إلى درابزين السلم، تزفرُ في تسليم:

- "بل نجلسُ في كافيتريا الكلية، لنتتهي سريعاً من هذا العبث، لن أخسرَ شيئاً، ولعلك صادقٌ في النهاية"

راحتُ ياسمين تحكي قائلةً:

"عرفتُ صديقك في العام الأول، إعدادي هندسة كما نُسميه، تلاقينا في معامل الكيمياء في الأيام الأخيرة من العام، حين يُراجع الطلبة التجارب قبل امتحان العملي، لم يُخفِ محمود نظراته نحوي من حينٍ لآخر، كنتُ دائماً

بعيدةً عنه مع زميلاتي في نهاية المعمل، ذات مرةٍ أسقط ما في الأنبوبة وأحرق معطفه الأبيض، بالغ في سرحانه بينما يُحدق بي!"

"على كلِّ حالٍ ليس هذا بجديدٍ، مَنْ هي مثلي أَلِفْتُ هذه النظرات واعتادت المُريدين، لا أشكر في نفسي أو أتفاخر بها لديّ، أنا أقرر الحقائق فقط، منذ نعومةٍ أظفاري كان هذا نمط التعامل الوحيد معي، خاصة من الرجال بكل أعمارهم، لم يكن محمود أول المتوددين أو آخرهم!"

"ربما لهذا ذاكرتُ وكافحتُ بشدةٍ لأثبتَ للعالم كله، أنني لستُ وجهًا مليحًا فقط، أنا عقلٌ راجحٌ ليس بالسهل، لن أكونَ سوى مهندسةٍ تقتحمُ أصعب المعادلات والنظريات والمناهج المُعقدة، وقد حدث وأثبتُ نفسي طوال عمري حتى الآن، ما الذي تطرَّق بي أصلًا لهذه النقطة؟! لنعد لصديقك الذي بحاجةٍ للمساعدة"

"في العام التالي كنا في قسم الميكانيكا العام معًا، لكننا افترقنا في المجموعة، هذا لم يوقف صديقك عن تعقُّبي، أَلفيتِه في كل محاضرةٍ يُمكنه أن يتواجدَ فيها عندنا، كل محاضرةٍ وكل سيكشن، حتى في الامتحانات وجدته قريبًا مني في المدرج! نظراته لم تعد محدودةً قليلةً، بل كانت

سهامًا يُوجهها نحوي في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، حقًّا سئمتُ هذا
الحصار، لكنه أعلنها لي صراحةً، أنا تحفةٌ فنيَّةٌ أو كائنٌ
فضائيٌّ جميلٌ يستأهل النظر والتأمل!"

"شيء آخر، كنتُ لا أكلم الأولاد أبدًا وقتها، حتى في
المدرج، كنتُ أجلسُ في مكانٍ ثابتٍ عند حرفِ البنش
كيلا يجلس أي طالبٍ بجواري، لا وقت للصدقاتِ البلهاء،
خاصة أنني أعرفُ نفسي، الكل يمُنِّي نفسه بنظرةٍ مني،
فما بالك بصدقتي؟ لكنني لن أضيع وقتي الثمين لجلساتٍ
في حديقة الكلية للعب spin bottle أو الصراحة وكل هذه
التفاهات، أنا أرجح بكثيرٍ من هذا"

"صديقك لم يُراعِ هذا وظل على حاله، بل اختار مكانًا
ثابتًا هو الآخر لا يُغيره في المدرج ليراني بأفضل صورةٍ
ممكنة! حتى أبديت ملي وسأمي جرأ كل نظرةٍ منه،
ما باله... ألا يُريحيني منه؟ لِمَ لا يأتي ويُعلن لي نيته في
الصدقة الحمقاء لأحسم له هذا الأمرَ وننتهي؟ وكأُهما
سمع خواطري، فبعد أيامٍ قلائل.. ألفتِه أمامي بمعطفه
الأنيق مبتسمًا في حرجٍ، يطلبُ مني بضع دقائق ليقولَ
شيئًا ما"

"لكنني وجدتُ نفسي أنكر معرفتي التامة به وكأنني
لم ألقه يومًا! أنت مين أصلًا؟!... تخيّل رد فعله وقتها!

عرّفني بنفسه سريعًا.. بعدها ألقى قبلته فورًا، لا لم يقل
إنه يُحبني ولكن...."

- "أردتُ إخبارك فقط أنني..."

- "هه... ماذا؟"

- "مُعجب بك جدًّا!"

ضحكتُ وقتها كثيرًا، أي صراحةً هذه وأي دخلة؟ لكن
لم يكن لديّ ما أقوله، مُعجب بي؟.. طيب! فلتعلم أني لا
أصاق أحدًا!

- "لكني لا أريدُ الصداقةَ أبدًا"

أقَطَّبُ في وجهه بطريقي الباردة كالثلج:

- "إذن ماذا تُريد؟"

لم يقل شيئًا، ظل يتجنب النظرَ إليّ وقتها كأنه يُحدق
في الشمس! أحين تأتي أمامي مباشرةً تخجلُ من النظر؟!
ألا تُريدُ الكلام أيضًا؟

- "بعد إذنك!"

وتركته وذهبْتُ.

- "باشمهندسة!"

جززتُ بغيظٍ على أسناني، والتفتُّ له:

- "هل تذكرتَ ما تُريدُ قوله؟"

- "بشأن.. بشأن شعرك!"

- "!!!"

- "..."

- "شعري... ما به شعري؟ هل أنت مُعجبٌ به كثيراً
هو الآخر؟!!"

- "لا شيء.. لا شيء ألبتة... آسف لإزعاجك، تفضلي!"

"وذاك هو التعاملُ المباشرُ الوحيدُ بيني وبينه، لم
تحدث بعدها لمرةٍ واحدةٍ، ظل يحضُرُ في مجموعتي
ليستزيدَ من الشرح فقط، فقد كَفَّ عينيه عني قليلاً،
ولا أخفي عنك أنني بدأتُ أهتم بالنظرِ له في تلك الأيام!
خاصةً حين تخلَّى عن مقعده لي ذات مرةٍ، مَنْ هذا
الشخصُ الغريبُ الذي يُكلم فتاةً بشأن إعجابه ثم بشأن
شعرها؟! لم أفهمه حتى يومنا هذا!"

"وفي العام التالي استمرَّ في زيارة محاضراتي بين الحين
والآخر، بلا نظرةٍ واحدةٍ لي، بل كان يشيح عني ما وسعه

ذلك! ربما لتدينه في تلك الفترة كما أظهرتٍ لحيثه النابتة، بعدها بعامٍ عرفتُ خبر تفوقه بجداريةٍ وتحطيم أساطيرِ قسم ميكانيكا إنتاج، ثم الخبر الآخر بأزمته النفسية الحادة جرّاء الإفراط في المذاكرة، استغل الطلبة هذا الخبرَ الأخيرَ بالذات في توجيه اللوم الصامت للأساتذة كي يخفّوا الضغط عنهم قليلاً، فها هي ذي نتيجة أسلوبهم في التدريس أن فقد زميلهم عقله!"

"يبدو أن هذا حدث فعلاً في سنة التخصص، فقد قابلته ذات مرةٍ في الحافلة ولم يُحرك عينيه للحظةٍ في اتجاهي، إنسان آلي فعلاً كما وصفوه، وحين رأني لم يتأثر للحظةٍ وكأنني محضُ هواء أمام ناظريه! أنا التي بقيت مُحَدِّقَةً فيه وقتها أتصعّب وأحوقل! هذا الفتى ضحية الأساتذة الحمقى!"

"هذا كل ما لديّ عمّن تسمونه كافكا! والآن بعد إذنك بلا كلمةٍ أخرى".

عُدْتُ من لِقائِي مع ياسمين عماد، مُتَخَنًا بِالأسئَلَةِ،
أَسِيرٌ نحو باب الكلية سِيرًا جَنائِزِيًّا لم أَقصدَه، لم يَفدني
كلامُها كَثِيرًا، وإن عرفت منه جانبًا مُؤكِّدًا في كافكا، خجله
الشديد الذي انقلب لصراحةٍ عارمةٍ، صراحةٍ لم تَكتَمَل
للحدِّ الذي يُخبر فيه حبيبته أن تتحجب! فلم تفهم
المُعَيِّدة ذات العقل الراجح أنه قصد شعرها وسُفورها،
محمود المتدين تمنى لو تُغطي حبيبته التي عشق النظرَ
إليها شعرها، لم يستطعُ إلا محض تلميحٍ بخيلٍ، ولعل هذا
كان الأصوب.. أم ربما لا؟

كافكا كان يحضرُ المحاضراتِ مرتين وثلاثًا من أجل
نظرةٍ لوجهِ حبيبته، جلس في مكانٍ معينٍ لا يتغيرُ، ليس
لرؤيةٍ أوضحٍ لكلماتِ المحاضرة المكتوبة، وإنما لملامح
حبيبته المرسومة بيد خَلَّاقٍ بديعٍ قديرٍ! محمود.. هل
انتهى بحثي هنا، لم أصل لشيء، لم أعرف مَنْ حبيبتك

سبب كبوتك، أين مذكراتك حقًا التي ادعيْتُ لياسمين
أنني عرفتُها منها؟ لماذا تضنُّ عليَّ هكذا بأسراركَ؟! لِمَ
لم تُخبرني في أحلامك العشرين بأكثر من ذئبٍ ودُبٍّ؟،
أفصح قليلاً عن رموزك التي تتركها في كلِّ مكانٍ تزوره و...
و.. رموز؟!... مكان تزوره؟!.. رسومات وكلمات؟!.. معاني
خبئة؟!... هناك أملٌ إذن!

هل فكَّرتُم فيما أفكرُ؟!!

باشمهندسة ياسمين، لا بد أن ألحق بك، ها أنا ذا أعودُ
أدراجي إليك، الأمل ضعيفٌ.. الخيطُ واهنٌ متآكلٌ، لكن لا
بد من المحاولة، كافكا... أرجوك يا صديقي، أفصح هذه
المرّة.. واستخدم القلمَ الجافَّ في رسمِكَ وكتابتِكَ! ورأيتُ
المهندسةَ الفاتنةَ هناك، تستعدُّ لركوبِ سيارتها الفارهة،
وصلتُ إليها ألهُتُّ، حمدًا لله أنني لحقتُ بك، ترمقني
عبر نظارةٍ سوداءٍ بالغَةِ الأناقة من نافذة السيارة:

- "هل جئتَ تطلبُ إليَّ أن أقابلَ صديقك وأعيده
لرشدِه؟! ربما تطلبُ مني أن أعانقه كذلك! عندها
صدَّقني لن أترددَ في دهسِكَ بسيارتي!"

أضحكُ في عصبيةٍ، وتضحكُ هي بفعلٍ ضحكي لكنها
تُومئُ بجديّةٍ:

- "ليس الأمرُ كذلك صدّقيني، فقط أردتُ أن أعرفَ
شيئاً، سؤالٌ واحدٌ أنتِ فقط القادرة على إجابته"
- "معامل مرونة الحديد تقصد؟!... هذه أمورٌ هندسيةٌ
لا تعنيك!"

- "لا ليس هذا.. فقط أريدك أن تصفي لي المكانَ
الذي كان كافكا يجلسُ فيه حين يحضر ليراك، صفي
لي المكانَ بالتفصيلِ والمدرجِ و.. وكل شيءٍ آخر
لأصل إليه!"

تصمتُ.. ينعقدُ حاجباها قليلاً فوق النظارة، تمطُّ
شفتها السفلى في تسليم، تخرُجُ قلماً ونوتة من حقيبة
يدها:

- "لا أفهم شيئاً، لكن لو سألتني عن مقعده المفضل
في كل سنين الجامعة لطعنتك بهذا القلم، لحظةً
حتى أرسمَ (كروكي) للمكان، شغل هندسة ودماع
كما تعرف"

خطتُ رسماً سريعاً وناولتني الورقةَ بعدما نزعتهَا من
النوتة، وابتسمتُ باقتضابٍ لكلماتي الممتنة، ثم خرجتُ

بسيارتها حامدةً ربَّها أنني سأنقشُ عنها، أما أنا فقد استقلتت سيارةَ أجرةٍ لأول مرةٍ منذ سنتين! أحب المشي عادةً وإلا فالحافلةُ أفضل، لكن هذا فقط لألحقَ بكليتك يا محمود، وصلتُ بعد دهرٍ، ذهبتُ نحو المُدرج المُحدّد، مدرج ٢٠٢ ج و... مغلق! الساعة تعدَّت الثانية ولا محاضراتٍ أخرى اليوم.

العاملُ.. أين العاملُ؟ ها هو ذا... أرجوك.. آتني الحاسبة.. لا بل ورق المراجعة.. بل البطاقة الشخصية، ها هي ذي حلاوة عودة الأشياء الضائعة لي، أرجوك افتح هذا الباب! ويفتح البابَ أخيراً.. ويُضيء لي الأنوار، انظر في الكروكي بينما أذرع المكان نحو ضالتي، البنش الثالث على اليمين.. عند حرف البنش من جهة اليسار و.. ها هي ذي فعلاً!... حمداً لله، ها هي ذي الآثار الكافكاوية ذاتها على البنش بقلمٍ أزرق لم ينمحي إثر السنين.

ليس هناك فراشاتٌ أو حيواناتٌ، لم تتعقّد الأمور وقتها لهذا الحدِّ، لكنَّ هناك وردةً كبيرةً لم ألقها من قبل، هناك منحنياتٌ كثيرةٌ تُشبه القلوبَ مرسومةً في شبكةٍ رياضيةٍ بيانيةٍ! هناك دوالٌ رياضيةٌ تُمثل أشكالاً عجيبَةً، هناك.. هناك.. لا شيءٍ آخر، كافكا.. لا تفعل بي هذا، عرفتُ أنك لن تتركَ هذا الموضوعَ فارغاً بالذات، لا تُرجعني لمنزلي دون

فائدة، ما الجديدُ هنا.. القلوب.. الدوأل العجيبة.. الوردة
و... الوردة.. لحظةً واحدةً!

في قلبِ الوردة، كلمتان اثنتان بخطِّ صغيرٍ مُزخرفٍ
ومُشكَّلٍ، واحدة فوق الأخرى، العليا أقل في الحروف تتحدُّ
مع السفلى في اتساقٍ بديعٍ، كلمتان عجيبتان.. لم أجد لهما
معنى في البداية، قرأتها مرارًا وتكرارًا حتى غامت الرؤيةُ
أمامي، كلمتان فقط... لم يحسما شيئًا، وأضافا لغزًا آخر..
بل ألغازًا كافكاوية أخرى.. كلمتان فقط.

"بنتُ النبي"

هكذا فقط يا كافكا؟!.. بنت النبي؟!

"بنت النبي"

كنتُ في غرفتي مُفكرًا، كعادتي هذه الأيام، شاردًا على
الدوام، تُناديني أمي لأجل العشاء فأردُّ أني قادمٌ ولا أُحرِّكُ
ساكنًا، لأنني أغرقُ في عالم كافكا، كافكا المصري وليس
التشيكي، ماذا بعد يا صديقي، ولماذا "بنت النبي" بالذات
التي كتبتها بينما تتأملُ محبوبتك عن قربٍ؟ ماذا عنيثُ
هذه المرة؟ أي نبي؟ ولماذا تراها ابنته؟! أهو محمد عليه

الصلاة والسلام؟ فأين ياسمين من بناته؟! وهل إحداهن اسمها قريبٌ حتى من ياسمين؟! هل هناك أصلاً من الأنبياء من سمّى ابنته بياسمين؟! أنا سمعتُ قصص الأنبياء ولا أذكر أي شيء كهذا، هل أحضر العهد القديم وأقرأ سير الأنبياء من أجل لمحة عن الياسمين، أهَيّ تسلية شخصٍ مثقفٍ مثلك وحسب؟! ترسم وردةً وتكتب فيها فخوراً.. بنت النبي!

أظنني انتهيتُ هنا يا صديقي، أحتاجُ لدان براون أو يوسف زيدان كي أحل هذه المعضلة ولعل هذا لا يحدث بوجودهما أيضاً! أهو الـ game over لكلّ هذا يا كافكا؟! لن أكلم أمك أبداً، بل سأدعُ هاتفك أمام باب الشقة، أطرقُ الباب وأهرّبُ كالأطفال، مع رسالة اعتذارٍ بخطّ خجولٍ خزيان، معذرةً يا أمي.. لم أنجح في فكِّ العَمَل، أظنه مكتوباً على جلد قرموط، وكما تعرفين.. من الصعب أن نجدَ القرموط لنطعمه لكافكا حتى يفيق! وهل يجب أن نطعمه القرموط؟! لا أعرفُ.. أقسم أنني لا أعرفُ.

تُنادي أمي مجدداً بصوتٍ أعلى:

- "قأااادم...حالا يا أماه"

هكذا، انتهى الأمرُ هنا.. كما يبدو.

ألقي بالمفكرة على المكتب بضيق، كانت صفقة خاسرة منذ البداية، مع من كانت الصفقة أصلاً؟!... مع لا شيء! مع الوهم ولذا هي خاسرة، ذهبت للردهة حيث تركت لي أمي عشائي أمام التلفاز، وقد رفعت صوته - التلفاز - لتسمع مسلسلها المفضل أثناء العمل في المطبخ:

- "لا تُغير المسلسل يا عبده!"

- "حاضر يا أماه"

في الواقع، كنتُ أحب المسلسل أنا الآخر وأتابعه حين تُتاح لي الفرصة، رغم كل الشبهات الموجهة نحوه، أعشقُ فيه القصة والدراما الإيمانية البديعة، أتجنب النظر فقط لممثلي الأنبياء كيلا يحتفظ عقلي بوجوههم عند ذكر أي نبي، رفعتُ الصوت أكثر.. وبدأت بالأكل:

- "يوزر سيف... اخترت لك زوجة مناسبة"

يوسف الصديق، يا لها من قصة... أحسن القصص حقًا و.. مضغتُ الطعام ببطءٍ، أتابعُ الأحداث بذهنٍ مكدودٍ:

- "إسينات فتاة جميلة.. تُناسبك حتمًا يا يوزر سيف"

شردت ناظرًا للشاشة، سرحتُ في محمود ثانيةً، هناك يرقدُ بلا أملٍ في العودة، ترى هل تابعتُ هذا المسلسل

من قبل يا كافكا حين كنتِ.. (حيًّا)؟! هل عرفتِ إسينات
زوجة النبي يوسف و.. وبنته!!!

بنت النبي يوسف! النبي يوسف.. تزوّج؟!.. وأنجب؟
وهبيتُ واقفًا في لحظةٍ، جريئُ لأمي في المطبخ، فهي
شاهدتِ المسلسل من قبل:

- "أمي.. هل تزوّج النبي يوسف وأنجب؟"

استغربتُ أمي سؤالي المفاجئ ولهفتي:

- "نعم.. تزوّج وأنجب!"

- "هل أنجب بنتًا؟"

- "بل ولدًا وبنتًا!"

- "ما اسم البنت؟!"

- "اسمٌ غريبٌ لا أذكره.. لماذا تسأل؟"

- "لا شيء.. أردتِ استباق الأحداث"

غسلتُ يدي بسرعةٍ، ذهبتُ نحو هاتفِي الخلوي،
كُتبتُ ثلاث كلماتٍ فقط في شريط البحث على الإنترنت،
ثلاث كلماتٍ محدداتٍ قد تفتح مجالًا جديدًا للبحث في

قضيتك يا كافكا، ربما.. ربما يكون هذا هو الحل.. ربما
يكونُ هو النبي المقصود؟ بعد اليأس الذي انتابني..
دعني أجرب، و.. كتبتُ الكلمات:

- "بنت النبي يوسف"

وضغطتُ زرَّ البحث.. ومرَّ شريطُ التحميلِ سريعًا
وظهرت النتائج:

- "مانيسًا بنت يوسف التي أنجبها.."

- "سمّاها مانيسا لأنها آنسته أحزانه..."

- "اسم جميل يُدعى مانيسا وهي بنت سيدنا يوسف.."

- "كان عليه السلام له من الأبناء مانيسا وإفرايم.."

هكذا إذن.. اسمها مانيسا..

مانيسا... ياسمين..

ياسمين... مانيسا!؟

هل ثمة رابط هنا؟... أي رابط؟

و... يا إله السماوات!

يا لك من محمود كافكا!!

مانيسًا... وياسمين! وتطابقُ في حروف الكلمتين يراه
الملاحظ اللبيبُ! إذن فهذا ما قصدته يا كافكا؟ حبيبتك هي
بنت النبي في نظرك؟ لمحض تشابه الاسمين في الحروف؟
وإلام يوصلني هذا؟ ماذا عن الذئب والدب و... لحظة
لحظة! الذئب.. ذئب النبي يوسف عليه السلام! الذئب
البريء من دمه! إذن.. فهي الخطوطُ العديدةُ تتلاقى
يا كافكا! خطوطك أنت، ربطت بين كل هذا لشيءٍ ما،
للكثيرِ من المعاني في عقلك، أنت الذي عشتَ منعزلاً عن
العالم، اتخذت رموزاً لكل شيء، لا يفهمها سواك، وانتهى
بك الحال هكذا و.. ولا بد من فكِّ الخطوط والعُقَد!
حتى أفهمك حقًا يا محمود كافكا! يا من لفتني السبع
دوخت!

مانيسا، ليس الأمرُ تشابهاً بالحروفِ وحسب بل هو
أعقد من هذا، المهم أنني عرفتُ أصل رموزك وخباياك،
قصة النبي يوسف عليه السلام، وربما قصص أخرى
للقط والغراب، ابني آدم مثلاً للغراب؟ فالغرابُ يُمثل
الموت بالطبع كما تثبت الفراشة المرسومة في وقت موت
قريبتك، وماذا عن القط؟!.. لحظة أخرى، هناك قطط في
حياتك يا كافكا، وقد أبكتك من قبل، أبكتك حين ماتت!
الآن.. فلنكمل السعي، أخرجتُ ورقة فلوسكاب
ضخمةً، كتبتُ عليها عشرات الكلمات، وعشرات الأفكار
والخطوط، وبين الخطوط تتلاقى نقاطٌ مشتركةً مضيئةً
قد تعني شيئاً ما، وأمامي الإنترنت السريع في حاسوبي
الشخصي، سأضيفُ به المزيد من الأفكار والخواطر، فهلا
نبدأ الآن؟ حينما اكتشفتُ اسم حبيبك شيء... والآن بينما
أكتشفك أنت ذاتك يا كافكا.. شيء آخر.. شيء مختلفٌ..
شيء أدعو الله أن أقدر عليه!

فلنبدأ من حيث انتهينا... مانيسا..
بنت النبي يوسف.. لكن هل هذا كل شيء؟

فلنبحثُ في الإنترنت عنها... مانيسًا فقط..

بحث..

مانيسا : مدينةٌ في تركيا!!

مانيسا : هي إحدى محافظات غرب تركيا يبلغ تعداد

سكانها...!!

مانيسا : مدينة الأساطير !!

مانيسا : احجز أفضل فنادق مانيسا !!!

يخرجُ خطُّ بلونٍ أحمرٍ مُميزٍ من كلمة مانيسا بنت
النبي يوسف إلى كلمة الخاتم، الخاتم الذي ارتداه كافكا
وعليه اسم مدينة تركية كما أخبر صديقه! من الأوقع
أن تُخبر الناس أن خاتمك هدية من صديقٍ تركي على أن
تخبرهم أن به اسم حبيبتك التي تراها بنت النبي يوسف!
امنحني المزيد من أسراركَ يا كافكا العجيب المُلغز!

لكن بعيدًا عن تشابه الحروف.. كيف ولماذا تنعتها
ببنت النبي يوسف؟! ألا يُعد هذا مبالغة يا صديقي؟
ماذا فعلت أصلًا لتقول هذا عنها؟! ما من سيرةٍ وافيةٍ
لابنته عليه السلام حتى أبحثَ فيها عن طرفٍ خيطٍ،

هي مذكورةً بالاسم فقط مع أخيها إفرايم، ولماذا تكتب اسمها في الخاتم ثم ترميه وتعودُ لتأخذه من جديدٍ و... و.. تفاقمت الأفكارُ والذكرياتُ في ذهني، وعادت تخطر بلا تتوقف.. تتشعبُ.. تتشابكُ.. تتوالى وتجرُّ بعضها البعض..

- "محمود مصطفى.. يُنادونني محمود كافكا.."

- "كان منطويًا على نفسه طول عمره... انعزالي من الدرجة الأولى.."

- "لا لكرة القدم... لا لمركز المدافع"

- "لم يُحب شيئًا أكثر من كتبه وألعابه وسبيس توون.."

- "بل أحب (هند) ثم (سميرة) ثم (ياسمين)... كلهن مليحاتٌ بصفيرة.."

- "أخونٌ صديقي وهذا مُحال"

- "يحملُ في جيبه دومًا زجاجة الفُل.. بل الياسمين.."

- "رأى القط ميتًا فبكاه كمن يبكي شخصًا عزيزًا"

- "شعرك.. شعرك يا باشمهندسة!"

- "صديقك ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه.. كأنه يعيش في مدينة تُنادي بالإباحية"
- "صديقي أحبه كلام يُقال"
- "الغراب يعني الموت.. لا غربان أخرى في قصص الأنبياء.."
- "يتأثرُ بهاري بوتر كثيرًا.. ودان براون وتلك الكتب الضخمة.."
- "خلفيةُ الهاتف على شكل مرآة.. هي الكاميرا الأمامية للهاتف.."
- "وهذا كلامٌ بليغُ الجمال"
- "موقف بسيط جدًا هو ما أغضب كافكا مني.. تخيل هذا؟"
- "شكرًا لطوق الياسمين"
- "مسلسل عادي عن الصداقة الحقيقية.. يعتبره خيالًا جدًا"
- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"
- "كان يتهكم كثيرًا على ثياب الفتيات العادية.. ما بالك بالمغرية أصلًا؟!"

- "سمع خبر موت زميلنا في حادثٍ.. لم يتأثر ألبته.."
- "كان خارجًا لتوّه من تجربة موت قريبته الشابة.. لا ييكي عند ذكرها"
- "أقسم ألا أقول الأكاذيب"
- "استيقظتُ اليوم على حمّام بارد... تبًا للأحلام"
- "سأخترعُ نظارةً لحلّ مشكلة الثياب الخليعة... ستجعل النظارة البنات في غاية العفاف!"
- "قرأ خمس روايات تتحدّثُ عن الموت في وقتٍ قليلٍ"
- "مُحال يُقال الجمال خيال"
- "مانيسًا بنت النبي يوسف"
- "سمّاها مانيسًا لأنها أنسته أحزانه"
- "كان يرتدي خاتمًا به اسم مانيسا"
- "كان عامه الثاني أفضل ما يكون.. حين حصل على جيد جدًّا"
- "سمّاها مانيسًا لأنها أنسته أحزانه"

- "أضاع الخاتم أكثر من مرة عن عمدٍ ويسترجعه
ثانية"

- "لم يعرفني وأنا أعزُّ صديقٍ له"

- "كان وفيًّا جدًّا لصديقه... لكنه زهد في صداقتي
ولم يتواصل معي"

- "نظر لي كأنني لوحٌ زجاجٍ أمامه... المفترض أنني
فاتنته المحبوبة!"

- "سمَّها مانيسًا لأنها آنسته أحزانه"

- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"

- "ثمة زهور لا تذبل أبدًا"

- "سمَّها مانيسًا لأنها آنسته أحزانه"

- "حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف"

- "أطرق في وجوم عند ضياع الخاتم... ثم هزَّ رأسه
مستسلمًا"

- "الخاتم به كلمة مانيسًا"

- "هناك حقيقة واحدة فقط"

- "سمَّها مانيسًا لأنها آنسته أحزانه"

- "سَمَّاهَا مَانِيَّسًا لِأَنَّهَا أَنْسْتَه أَحْزَانَه"

- "سَمَّاهَا مَانِيَّسًا لِأَنَّهَا أَنْسْتَه أَحْزَانَه"

- "يَكْفِي"

- "سَمَّاهَا مَانِيَّسًا لِأَنَّهَا أَنْسْتَه أَحْزَانَه"

- "قَلْتُ يَكْفِي!"

فعلاً يكفي.. فقد استقرت الفكرة واختمرت في ذهني،
أي فكرة هذه؟! وهل هي حقاً ما أصبو إليه منذ بدأتُ
بحثي؟! هل أخيراً وجدتُ نهاية تساؤلاتي؟! هل أتخيّل
للحظةٍ أن تكونَ فكري خاضعةً للمنطق والحقيقة؟! إلى
الإنترنت للتأكد إذن، أعلم أنه سيؤكد لي أفكاري، هي
فكرةٌ ممكنةٌ في الأدب والخيال العلمي ولكن... ماذا
عن عاملنا المقيّد بالواقع وحسب؟! سأفكّر بخيالي إذن..
فالخيالُ يستحيلُ علمًا في لحظةٍ، وربما فعلها كافكا بشكلٍ
ما، أحتاجُ الآن لشخصٍ آخر غير دان براون ويوسف زيدان
لمساعدتي، أحتاجُ خبيراً في ما وراء الطبيعة، وفي نفسِ
الوقت أحتاجه مثقفاً عاقلاً.. خليطاً بين ساحرٍ وأستاذ
جامعة! ربما أحتاج لأحمد خالد توفيق؟

بحثت لساعاتٍ طوالٍ، ثم بحثتُ في الشبكة العميقة، حيث المواقع المحظورة التي لا تصلُ إليها بالمتصفح العادي، هناك وجدتُ مواقع السحر والشعوذة، بالتأكيد كان كافكا سيفعل هذا، سيبحثُ في النت ما لم يكن قد زار ساحراً و... بالفعل! كافكا.. والنت والسحر! استخدمت الخاصة التي تسمح لي بالبحث عن كلمتين معاً في نفس المقال، محمود + كافكا + السحر + النسيان، وكلمات أخرى كثيرة، تباديل وتوافيق بلا نهايةٍ حتى.. حتى وصلت لنتيجة! هناك طريقةٌ على النت، غير معقولةٍ هي الأخرى، لا لم أجد أي ذكر لكافكا بها ولكن.. ولكنها أعطتني الأمل في فكري، الآن.. لا ينقصني سوى التجربة.

التاسعة مساءً، والقمر يكتملُ في شموخٍ، أستقل الحافلة للمستشفى، وأسائلُ نفسي للمرة المليون.. هل أنا أشد المخابيل جنوناً؟!.. أم لعلي أذكي العباقرة جموحاً!!؟ المعاني كلها واحدةً، تصفُ حالتي بدقةٍ، غباء وجنون.. أو جموح وذكاء وألمعية، سأعرفُ الآن... سأعرفُ كل شيء، لم يزدني البحثُ في النت سوى تردد يشوبه الأمل !

هو هناك في المستشفى.. يرقدُ بانتظاري، بانتظار من يُخرجه من غيابه الذي قد يطول، فهل أفعّلها؟ أرجو فقط ألا أجد شهوداً على تجربتي، لا آمال تنعقدُ في الصدورِ ثم تذهب جفاءً، أم محمود.. وبالذات أبو محمود، أرجو كما لا تكونا هناك، فعلت هذا كله من أجل وحيدكما، والآن دعاني أخسرُ في سلامٍ، لا تُعذباني بنظراتِ اليأسِ بعد انتظار الفرج، هل أنا في يقينٍ من الخسارة بهذا الشكل؟! إذن لماذا لا أعودُ أدراجي وأنسى الأمر برمته؟

لا... فأنت ناديتني بصمتٍ حين طاردك ذئبٌ عرفت معناه، ودبُّ أنقذك زوراً ولعلي عرفته هو الآخر، ربما عرفتُ كل شيء.. وربما لم أعرف شيئاً على الإطلاق، دعني من خواطري الآن، ها أنذا أجتاز الردهة نحو غرفتك في الممرِّ، أدخلُ والأملُ يملؤني.. يمتزجُ بالرهبة، لكنهما كانا هناك.. أجفلت الأم لرؤيتي، أما الأب فقد احتدّت نظراته شيئاً فشيئاً وبدا أنه... أسرعُ قائلاً:

- "دقيقة واحدة فقط... لن أمكث أكثر من ذلك"

ولم أنتظر لثانيةٍ أخرى، ذهبْتُ نحو رأس محمود مغمض العينين، لعله يسمعني الآن، بالتأكيد يسمعني.. أذنه.. عقله.. خياله.. وجوده وكيانه، ملتُ قليلاً على أذنه.. يفعمني الشعور نفسه، وكما يقول علماء الدين..

الجمع بين الخوف والرجاء، ما قرأته في النت يُشجّعني..
يكسيني بأملٍ طامحٍ، قلتُ أخيراً وبصوتٍ مسموعٍ:
- "مانيسًا"

انتظرتُ متوتراً، كأنها لحظة فك الأربطة عن عيني
البطلة في الأفلام القديمة، هل ستبصر أم لا؟! فما لي لا أقدرُ
على فك أربطة وعيك يا كافكا!
- "مانيسًا"

المرّة الثانية.. أقولها بإصرارٍ، لكن لا شيء.. لا إفاقة، الأم
ترمقني في جزعٍ، تنساب دمعتان منها مُمزقان ضلوعي،
الأب يوجه لي أعتى نظرات الاحتقار والضييق.. وربما
الشماتة، تعويذتي لفك العمل السفلي لم تنفع، انتهى،
الخطّة فشلت، بل كما قلت من قبل.. ليست هناك
خطة من الأساس، الكلام عن السحر محض ترهّات،
رفعتُ رأسي عن رأسه، أنظرُ إليه.. تمتلئُ مُقلتي بالدموع
أنا الآخر، أقولها.. بكل يأس الدنيا وحزنها للمرّة الأخيرة،
بصوتٍ هزّه البكاء والنحيب:

- "مانيسًا"

و مرت الثواني بلا إكتراث بي ، أغمضتُ عيني مبتعدًا
عن محمود..أو كافكا ، ذلك الغائب أيًا كان اسمه ، مديرًا
ظهري له و لآله ، لم أفتح عيني حتى وصلت للباب ، لم
أفتحها إلا حين سمعت شهقة الأم خلفي ، استدرت ملهوفًا ،
رامقًا كافكا هناك..

وهنا..

وهنا فقط..

تحركَّ الجسدُ..

وفُتحت العينان..

وهمس الفمُ بشيءٍ ما...

الجزء الثالث

سجين

لا شيء آخر.. هنا النهايةُ المتوقعةُ لإيسافِ برصيصة،
بين أنيابِ دبٍّ وبفعلِ صديقٍ واشٍ، لا يعرفُ الحلمُ من
الحقيقة، كما لم يعرفِ الحقُّ من الضلالِ، كما لم يُميزِ
الصديقُ من العدو، إيسافِ يا أحمق، ربما لو لم تكن
أحمق، لما وجدتَ نفسَكَ هنا الآن، لكنتَ مثل نائلةٍ أو
بروتس يهوذا، لكنك لم تكن مثله أو مثلها، عشتَ مُذبذبًا
طوالِ عمرِكَ، لا تدري أين الحق، ولو عرفته لا تفعله
باطمئنانٍ واقتناعٍ، ألا فسحًا لهذا كله، ألا فسحًا لك.

اركع أمامِ الدبِ يا إيسافِ، دعه يبدأ برأسِكَ فيريحك
فيما بعد، اسجدْ يا إيسافِ، اسجدْ في اتجاهِ الأرضِ المرسومِ،
اسجدْ كي تختبئَ هناك بعيدًا و... الصوت، ما ذاك الصوت
الذي يُنادي؟ وأي كلمةٍ هذه التي أسمعها..

- "مانيسًا"

كلمة غريبة على مسامعي، من نفس عالم كلمة
يوسف التي سمعتها من قبل:

- "مانيسًا"

تتكرر الكلمة مجددًا بإصرارٍ، يسمعا الدب هو الآخر
ويزوم في غضبٍ، انشغل عني وكأنه ينتظر شيئًا ما، مرَّ
الوقت ولم يحدث شيء، استعدَّ الدبُّ للفتك بي مجددًا،
انكمشتُ في ملاءتي أكثر ولكن..

- "مانيسًا"

وهنا ظهر شيءٌ ما، برز ظله قافزًا خلف الدب، كان..
كان ذئبًا، ذئبًا رماديًا، هو نفسه الذي طاردني مرارًا في
الأحلام، أنشب أسنانه في كتف الدب، الدب الذي هاج
وماج ثم نزعه من كتفه صارخًا، ابتعدتُ في الركن أراقبُ
المعركة، وكيف تتكافأ المعركة بين دبٍّ وذئبٍ؟ لكن الأخير
فاز بعنصر المفاجأة، والسرعة والشراسة، يقفز.. يخمش..
يعض، وكان ضخمًا يصل ارتفاعه إلى خصري أنا، هكذا
استمرت المعركة دهرًا، يزوم الوحشان بلا نهاية حتى
كانت الغلبة للذئب، حين عضَّ عنق الدب الذي تهاوى
كشجرة قطعوا جذورها، الدم.. دم الدب كان أبيض، أبيض
لزجًا ينزُّ دافقًا من جروحه.

وقف الذئبُ فوق جثةِ خَصْمه المقتول وعوى طويلاً،
ونزل من فوقها متجهاً إليّ، هل أقاوم.. هل أحاول؟
الذئبُ أهون من الدبِّ على كل حال، الذئبُ الذي صرْتُ
أسمع أنفاسه، إذ يدنو.. ويدنو..و...

- "نجوت... نجوتَ يا كافكا"

كانت هذه من الذئب! الذئب يتكلم؟! وما المشكلة..
ألسنا في حلم؟

لكن.. مَنْ هو كافكا؟

وَمَنْ مانيسًا؟

وَمَنْ النبي يوسف؟!!!

- "أنت تتكلم؟... ما زلنا في الحُلم؟ أليس كذلك؟!"
يبتسم الذئب.. لو كان لي أن أقول شيئاً كهذا:
- "ربما الآن هي الحقيقة، وكل ما عشته في العاهرة
كان الحلم"
- "إذن فأنت تتكلم في الحقيقة؟"
- "الحقيقة والحلم.. نسيان جداً يا صديقي"
- "صديقك؟! كيف أكونُ صديقك بعد كلِّ المرَّات التي
طاردتني فيها؟! وما هذه الدماء التي تخرجُ منك؟"
- دماؤه.. كانت بيضاء هي الأخرى، لزجةٌ تلوِّثُ جروحه
التي أحدثها الدبُّ، قلتُ مبتعداً عنه:

- "أنت مثله تمامًا، نفس الوحشية.. نفس الدماء، هل ستهاجمني بغتة؟ هل ستجلب أصحابك بعوائك هذا؟"

يبتسم من جديد:

- "دماؤنا واحدة، لكن ولاءنا مختلف، برأيك يا كافكا، من الذي ناداك في كل مرة كنت أطاردك فيها؟"

- "لا أعرف... ما قصدك بهذا السؤال؟"

- "أنا يا كافكا! أنا من كنت أناديك، لأنني لم أكن أطاردك، بل كنت أبغي إنقاذك"

- "لا أصدق، ولا أدري شيئاً عن كافكا هذا، كنت أسمعك تُناديني بإيساف"

- "لأنك تظن أنك إيساف، بينما أنت كافكا.. محمود كافكا"

- "ماذا تنوي أن تفعل بي؟"

- "سأعيدك للخارج ثانية، لكن قبل هذا سأريك ما قد يُفيدك، لماذا لا نغير لك ملاءتك الرثة هذه؟"

وفي نفس اللحظة، اختفت عني الملاءة وبدلاً منها وجدتني أرتدي ملابس فاخرة أنيقة، ثقيلة تُدْفني.. نظيفة جميلة فعلاً:

- "كيف فعلتَ هذا.. و.. أتعرفُ؟ شعورُ الملابسِ على
الجسدِ ممتازٌ! نائلة كانت على حق"
- "يُسمونه المعطف يا كافكا، ذاك هو نوعك المفضل
من الملابس والآن.. لنتركَ هذا المكان المبارك"
- "المبارك؟... تعني هذا السجن؟"
- "ليس سجنًا كما أخبروك، هو مكانُ العبادة أصلاً!"
- "لا أفهمُ شيئًا... وما زلتُ لا أثقُ بك!"
- "ولماذا؟"
- "لأنك ذئبٌ!"

يَتَنَهَّدُ الدُّبُّ

- "مظلومٌ أنا دومًا، منذ فعل أخوة يوسف فعلتهم
وألصقوها بي"
- "لا أعرفُ عمَّا تتكلمُ.. لكنك ذئبٌ"
- "أتعرفُ أن البشر في عالمك، يتخذون من الدببة
دُمى يُقدمونها لبعضهم، كمثالٍ للوداعةِ واللفظ؟
مع أن الدب أشرس مني بكثيرٍ، يأكلُ فريسته حيَّةً

ببطءٍ شديدٍ.. وتتجاذبُ الدببةُ طريدتها حتى تتمزقَ
أوصالاً وقطعاً؟

- "لكنك ذئبٌ!"

- "خُلقتُ ذئبًا.. لا ذئبَ لي في هذا"

- "مهما قلت.. أنت ذئبٌ!"

- "سأخبرك شيئاً عجيباً، في عشيرتنا، حين نشتم

بعضنا بعضاً، ما هي أسوأ سبة تتخيلها... يا ذئب! لا

بالطبع... بل يا بشري!!"

- "أنتم الذئاب هكذا... منذ كانت ذات الجسد الأحمر!"

- "الواقع أنها ذات الرداء الأحمر! لكنك لا تعرفُ أن

في القصة الأصلية، شاركت الفتاة الذئب في أكل

جدها!"

- "اكذب كما تريد.. فأنت ذئبٌ! تأكل الأرانب الصغيرة

المسكينة!"

- "لا أكذب، كما أن الأرانب تكشفُ لي نفسَها بسخاء،

وأنا أحب اللحم! هكذا خُلقت!"

- "في النهاية تظل الذئبَ الشريرَ القاسي"

- "صدَّقني قد أكونُ ذئبًا، لكنني مع حبيبتني.. ذئبتي،

أصيرُ أرق من غزالٍ"

- ٣ -

- "لا أفهمُ شيئًا منك.. ولا أستطيعُ الوثوقَ بك، رغم أن هذا محض حليمٍ.. كله في رأسي"

يمدُّ الذئبُ إحدى قائمته الأماميتين إلى صدري كأنه يربطُ عليه، لم أبعُد يده عني.. كأنني أعرفه رغم خوفي منه، كأنه مني، يقول باسمًا:

- "ليس معنى أنه يحدثُ في رأسك.. أنه ليس حقيقيًا.. هكذا علمتنا رولينج.. أتذكرها؟"

- "لا أذكرُ شيئًا!"

- "ربما تذكرُ حين تعود، والآن دعنا نرى هذه المشاهد معًا، لن أفعلَ بك كما فعلوا، سنرى أحداثًا تمت بصلة لك أنت، عسى أن تنفَعك فيما بعد حين تفهمها فهمًا صائبًا"

وفي اللحظة التالية، اختفت الزنانة، اختفى العالم كله إلا مني والذئب، وبدأت مشاهد جديدة تحل محلها حولنا، كأنه عرضٌ مسرحي مُتقنٌ، كانت الصحراء ممتدةً أمامنا بلا حدودٍ، وبنظرةٍ للخلف وجدتُ سوراً وبوابةً والكثير من أسلاكٍ حديديةٍ شائكةٍ وملتفة، هناك برجان عاليان فيهما رجلان يرتديان ملابسٍ ثقيلةً مبهرجةً، يختلطُ فيها الأخضر والبني والكاكي، ويقفُ كلُّ من الرجلين خلف ما بدا كمدفعٍ معدني مصغرٍ جميل الشكل، تطوَّع الذئبُ بتفسير ما أراه دون أن أسأل:

- "هذه الملابس تُسمى الرداء المموه، وهذان الرجلان جنديان من الجيش، يُدافعون عن البلاد ضد غزو الأعداء، سترى الآن ما قصده من اصطحابك لهناء، تصرَّف كما تُحب، لا أحد يرانا أو يسمعنا، تخيل أنك في عرضٍ مسرحي يجري دون اِكتراثٍ بك"

ورأيتُ البوابة تُفتح، يخرج منها الكثير من الجنود، وقفوا أمام البوابة، يتعانقون ويبكون جميعاً، كل جندي يُعانق زميله بحرارةٍ وبيكي:

- "أهم ذاهبون للحرب؟"

سألتُ الذئبَ مستغرباً:

- "بل هم يُودعون بعضهم البعض، فبعضهم أنهى مدته المطلوبة كجندي في الجيش، وهم الآن يرحلون عائدين لبيوتهم وعائلاتهم"
وانتهى الكلُّ من الوداع، ورحل من رحل وبقي جنودٌ آخرون، عادوا إلى بوابتهم يمسحون دموعهم:
- "تعالٌ معي.. لذاك الجندي هناك"

قالها الذئبُ وسار خلف أحد الجنود، يُشبهني إلى حدٍّ كبيرٍ، تبعته متسائلاً عن قصده، لكن الجندي لم يفعل شيئاً، انتبذ ركنًا بجوار أحد المباني وانخرط في بكائه وعويله، لم ينقطع لحظةً عن حزنه، بل زاد فيه:

- "برأيك.. لِمَ يبكي؟"

سألني الذئبُ، فرددتُ بتلقائيةٍ:

- "ربما من أجل أصحابه"

- "بالفعل.. هو حزينٌ لفراقهم، رغم الأيام الصعبة التي قضاها معهم، لكن ما يُبكيه بحرقه هكذا؟ مع أنه يملك إمكانية المراسلة فيما بعد، يُرسل لهم الخطابات وربما يقابلهم كذلك".

- "تعني أن الأواصر لن تنقطع بينهم؟"

- "إطلاقًا.. هم قادرون على لمّ شملهم في كل مرة
بتلك الرسائل ولو أنها تستغرق وقتًا بين البلاد
البعيدة"

- "ربما يبكي إذن لأن الرسائل تستغرق وقتًا!"

هنا ضحك الذئبُ:

- "أتعرفُ.. فيما بعد هذا العصر، ستكون الرسائل
أسرع مما تتخيل، سيمكنك التحدث مع صديقك
مباشرةً بمجرد أن تنوي ذلك، ولكن ذاك الجندي
المشتاق لصحبه، سيبكي حتى في عصر الاتصالات
السريعة والرسائل اللحظية!"

- "حقًا.. ولماذا؟"

- "هذا ما أريدك أن تفكر فيه حين تخرج من هنا"

- "أخرج إلى أين؟"

- "ستعرفُ حين تخرج، والآن دعنا نكمل جولتنا في
الصحراء"

- "أترى هذا المشهد هناك؟"

أشار الذئب الرمادي برأسه في اتجاهٍ ما، لم أرَ في البداية إلا ما ظننته شيئاً بُني اللون بلا ملامح وسط الرمال اللا منتهية ..

- "قِطِي... إنه قِطِي المِشمِشي"

عرفته، كان هناك يمرحُ مع الظلال كما في حلمي:

- "إذن فأنت تذكره، هل تعرف نهاية الحلم؟"

- "سيصيده الغراب، سيموتُ بين مخالفه"

- "لماذا لا نرى بأعيننا؟"

- "لا أحب رؤية هذا ثانية"

- "لا تسبق الأحداث يا كافكا!"

وبالفعل.. لمحتُ الغراب هناك، أعلى القط.. يرصده بتؤدّةٍ، راح يقتربُ منه، يهبطُ كأنه أعظم الصقور... يبغى القط فريسةً سهلةً:

- "سيفعلها... لن أنظر!"

وأغمضتُ عيني بعصبيةٍ، لكن يد الذئب لكزتني

برفقي:

- "أنظر فقط الآن"

ونظرتُ في حذرٍ، القط... القط الأريبُ يلمحُ ظل
الغراب حين دنا منه، ينظر أعلاه، يتوتر.. تقفُ شعيراتُ
فروه في تاهبٍ، الغرابُ لا يُبالي، يُواصل هبوطه الكاسح،
لكن القط يثبت رامقًا عدوه مضيئًا عينيه، رغم اقترابِ
الغراب أكثر وأكثر:

- "احذرا!"

القط لا يسمعني، حتمًا لا يفعلُ عبر هذه المسافة،
لكنه يعرفُ ما هو مُقبلٌ عليه، فعلها في اللحظة المناسبة،
وثب وثبةً هائلةً، فاردًا قوائمه ذات المخالب في إعجازٍ،
مستقبلًا الغراب الذي صرخ من المفاجأة، وإذ بالقط
يقتنصُ عدوه، وإذ بالكابوس ينقلبُ حلمًا جميلًا:

- "لا أُصدِّقُ ما أرى"

القط يهبطُ بفريسته، يعتليه بقائمتيه الأماميتين، يقتله
فورًا صادقًا بمواء المنتصر، يتركه أخيرًا.. زاهدًا في أكله،
عائدًا إلى لعبه ومرحه:

- "إذن.. فهو لن يسرقَ مني قطي"

يُومئُ الذئبُ برأسه ويُشير للغراب الصريع:

- "ليس هذا كل شيء، فالآن.. يأتي أخو الغراب ليدفنه مكانه"

- "يدفن أخاه؟"

- "هذا ليُعلّم الإنسان دفن الموتى، انظر لهذين المتنازعين هناك"

وأبصرتُ رجلين شبه عاريين، هاجم أحدهما الآخر بصخرة عملاقة ليُرديه قتيلاً، ويرمق القاتل ضحيته في صمت المذهول:

- "هذه أول جريمة قتلٍ في التاريخ، أتعرفُ لماذا يا كافكا؟"

- "أذكر شيئاً كهذا، قتله من أجل أنثى يتعبدُ معها لنفسه"

- "ليس بالضبط، فالواقعُ أن الأخ قتل أخاه طمعاً في امرأةٍ ليست له، امرأة جميلة وحسب!"

- "قتل أخاه من أجل هذا؟!"

- "وهل هذا شيء قليلٌ؟ إنه جمالُ المرأة يا صديقي! من أجله كتبتُ الأشعار وحكيت السير والأخبار، ومن أجله.. كانت أول جريمةٍ في التاريخ!"

- " ما رأيك الآن أن نزورَ مسجدًا بحقُّ؟ "

قالها الذئبُ، وتغيرت الدنيا، وجدتني في مكانٍ فسيحٍ،
يموجُ بالسكينة والوقار، أرضه سجّاد أخضر عليه النقشة
ذاتها تشير لاتجاهٍ واحدٍ، وهناك جسمٌ خشبي مُزخرفٌ
بديعُ المنظر له درجاتٌ تنتهي بمكانٍ للجلوس، خلا
المسجد بأكمله من الناس إلا ثلاثة نفرٍ، كانوا جلوسًا في
أحدِ الأركان يستندون إلى الحائط الرخامي خلفهم، أشار
الذئبُ إليهم فذهبنا نستمع، توسط الثلاثة شاب مليحُ
الوجه، كث اللحية أخضر العينين، وحوله فتیان بدا أنهما
يستشيرانه في أمرٍ ما، قال أحدهما:

- " يا شيخ.. لي عندك مسألة.. بل اثنتان "

قال ذو اللحية:

- "تفضل!"

- "هل ينبغي خلع الخاتم عند الوضوء؟"

يتنحى الشيخ ويقول في تودة:

- "لا يجب عليك ذلك، يمكنك تحريك الخاتم فقط في

الأصبع دون خلعه، وبهذا تُمرر الماء على موضعه

في الأصبع، وفي نفس الوقت لا تضطر لخلعه"

يصمّت الفتى قليلاً، ينظرُ إلى كيسِ قماشِي مُعلقٍ

على الجسمِ الخشبي ذي الدرجات، كيسٍ مزخرفٍ وملونٍ

برسوماتٍ زاهيةٍ جذابةٍ، وثمة كتابة عليه بلغة أهل الروم،

يقولُ الفتى بسرعةٍ كأنه لا يرتاحُ لهذا السؤال:

- "يا شيخ... هل الرسم حرام قطعاً؟!"

- "رسم الحي من الكائنات، أما رسمُ الأشياء الجامدة

فلا بأس، وقد لقي الإمام عليُّ كرم الله وجهه رجلاً

يعمل برسم الأشياء، فأشار عليه أن يترك هذه المهنة،

فقال الرجلُ إنها صنعتها التي يرزقه بها الله قوت

يومه، فأمره الإمام أن يتعد عن رسم البشر"

- "إذن فالرسوماتُ على هذه الشنطة حلالٌ يا شيخ؟"

وأشار الفتى للكيسِ القماشِي، ردَّ الشيخُ بعد هنيهة:

- "هذه الشنطة نسيها أحد المصلين في المسجد، لذا نحتفظُ بها هنا لعله يراها يوماً ما"

- "ماذا عن الأشجار والنباتات بها؟"

- "لا بأس بها فهي ليست ذات روحٍ"

قال الفتى الآخر:

- "هناك فراشةٌ مرسومةٌ يا شيخ فماذا عنها؟"

هنا صمت الشيخ ولم يرد، واستأذن في الذهاب، تاركاً الفتيان ينظران لبعضهما في صمتٍ، قال أحدهما أخيراً:

- "نسيْتُ أن أسأل عن شيء آخر طراً بذهني بالأمس"

- "أي شيء؟"

- "إذا سمع المرء أذانين للصلاة في وقتٍ واحدٍ، فخلف أي مؤذنٍ يُردد الكلمات؟"

تفكر صاحبُ الفتى قليلاً، ثم قال وهو يهيمُّ بالقيام:

- "أرى أنه لا داعي لهذا السؤال"

- "ولِمَه.. هل تعرفُ إجابته؟"

يمدُّ صاحبُ يده للفتى الجالس ليُساعده على القيام، ويقول:

- "اختر لك أذناً منهما... وردّد خلفه!"

أطرق الفتى حين قام.. ثم أوماً في تسليمٍ، وبدأ
المشهدُ يتغير، عُدنا إلى الصحراء ثانية، وقد صار الجو ليلاً
دفيئاً، تفتشُ النجوم السماء وتكللها بأبهى إكليلٍ، بدت
في قمة روعتها في هذا الخلاء، اطمأنت قليلاً إلى الذئب،
وجدتُ يدي مُمسد على رأسه الناعم وحدها، قال لي:

- "أتذكر ما قيل لك عن الدين يا كافكا؟"

- "الدين؟.. تقصد أن الدين تدخين؟"

- "بالضبط... هل ما زلت تراه كذلك؟"

- "لا أدري... حقاً لا أدري"

- "أتعرف.. هذا الوصف يسري على كثيرين للأسف،

ومنه يأتي التدخين السلبي"

- "السلبي؟... وكيف هذا؟"

- "أن يُصيبك المرء بدخانه دون قصدٍ منه، أو بقصدٍ،

وقد يُعطيك التبغ نفسه لتدخنه معه في النهاية،

فهل ستقبل عندها؟"

- "يبدو لي أن كل ما عرفته في العاهرة.. هو أبطل الباطل، وفي هذه الحالة، ألا تكون قاعدة أن الدين تدخين كذبًا هي الأخرى؟"

- "هل أدركت حقًا أن ما عرفته هناك كان أبطل الباطل؟ هل اقتنعت بشيء أخيرًا؟"

لم تصدر مني إجابةً لسؤال الذئب، لكنني تذكرتُ الجملة الرومية على الكيس القماشي المُسمى الشنطة، كانت بديعة المعنى حين فكرت فيها الآن

Everything grows with love

سألني الذئبُ مُقترحًا

- "هل نرى الآن الحلم الثاني؟"

- "تعني حلم الذئب.. والدب؟.. هل يُمكننا؟"

- "بالتأكيد.. دعنا نفعل هذا الآن!"

- "لا داعي لهذا!"

- "ولِمَ لا؟"

- "لا شك أن الدب سيقتلني، أو ربما يلقي بي في

البحر"

- "حدث هذا حقًا، رمى الدب بنفسه في البحر لتموتا معًا"

- "هذا يعني أن الدب كان ضدي منذ البداية، العاهرةُ

كلها ضدي، في الحلم والحقيقة، لكنني لم أدرِ إلا

متأخرًا.. أليس كذلك؟"

- "دعنا من الحلم والحقيقة، دعني أريك هذا المشهد
الأخير قبل عودتك يا كافكا"

- "اشتقتُ إلى عودتي هذه.. مع أنني لا أعرفُ إلامَ
سأعودُ!"

- "هم أيضًا اشتاقوا إليك، والآن.. ستعيشُ هذه المرة
المشهدَ بنفسك، أنت بطله.. كمسرحيةٍ تمثلها،
بعدها نلتقي لآخر مرةٍ يا محمود".

مصر المباركة، غنية بحقولها الشاسعة، تلمحُ فيها
سنابلُ القمح تحت الشمس الزاهية، أعلى من الذهب
وأشهى من اللحم، فالقمحُ يعني الطحين.. يعني العجين..
يعني الخبز، وقد مضت سنواتُ الجفاف على خيرٍ، تم
فيها ما خطط له العزيزُ بفضل الله العلي القدير، ثم
بفضل عبده النبي الذي بارك به الأرض والعباد، النبي
الكنعاني الأجمَل من كل جميلٍ، يوسف بن يعقوب عليه
أفضل الصلاة والسلام.

هكذا فكَرَّ إسحق بن حور بينما يمسخُ عرقه، مستريحًا
تحت ظل نخلةٍ بعد العملِ الشاق في حقل القمح، أتاه
من بعيدٍ صديقُه المُقرب يعقوب، يحملُ سلال الطعام

الشهي، يُناول إسحق سلته ويخرج الخبز الطازج والإدام الطيب، يأكلان في صمتٍ يلاحظه يعقوب ويستثقله:

- "ما بك يا إسحق؟ أيامٌ طويلةٌ مرّت وفمك عاكفٌ عن الكلام، أراك مطرّفًا على الدوام كمن نزلت به نازلة، أخبرني يا أخي، علّي أساعدك أو أدعو الله أن يُخفف عنك"

- "أسرّح في ملكوت الله يا صديقي"

- "بل تسرح في بنات حواء! منذ أمرك أبوك بالبحث عن زوجةٍ مناسبةٍ وأنت ساهم كأنك تستعرض ما خزنت من صورهن في عقلك"

يضحك إسحق بشدةٍ، بينما يُبلل اللقمة بالخلّ:

- "تعرفني كنفسي يا يعقوب، أنا فعلاً سارحٌ في هذا الشأن، لكنها واحدةٌ فقط يا صاحبي من تعينني، عندما أفكر فيها، أذكر ملكوت الله في الوقت نفسه، لأن كل جمال الملكوت قد تمثل فيها حتمًا، هي مثالٌ جمال الخالق القدير في إمائه"

- "حقًا؟!.. مَنْ هي إذن؟"

- "أنت لم ترها يا يعقوب"

- "صفها لي إذن!"

- "أنا أيضًا لم أبصرها لمرةٍ واحدةٍ"

يرمقُ يعقوبُ صديقه بامتعاَضٍ:

- "أتهزأُ بي يا أخي؟ سادعك لخيالاتك العجيبةِ إذن"

وهمَّ يعقوب بالقيام إلا أن إسحق تمسَّك به:

- "على رسلِك يا صديقي، حاشا لله أن أهزأ بك"

- "وكيف تُحب امرأةً لم ترها؟.. أفقدت عقلك على كبر!"

- "ليس الأمرُ كذلك، أعرفها لكني لم أرها"

- "لا أفهم شيئًا، كيف عرفتَ أنها جميلةٌ إذن؟"

- "لأنها بنته يا يعقوب"

- "بنت من؟"

- "بنت النبي"

اتسعت عينا يعقوب للحظةٍ، كأنه لا يُصدق صاحبه
فيما يقول:

- "تقول بنت من؟"

- "بنت النبي يوسف."

- "فعلاً فقدت عقلك يا أخي! أترغبُ في بنت النبي يوسف؟"

- "أرغب فيها زوجةً لي، لقد سمّوني باسم جد النبي كما سمّوك أنت باسم أبيه، نحن جميعًا نُجله ونُعظمه ونُحبه"

- "لأنه القائمُ بخزائن مصر، والأهم من هذا؛ لأنه نبي من الله للعباد"

- "وأنا أرجو مصاهرته، أيوجد في الدنيا صهرٌ أعظم من هذا؟"

- "بالطبع لا، لكن الجميلات كُثر، ولن تعدمَ جميلةً تجدها بدلاً من بنت النبي نفسها"

- "وهل هناك مَنْ هي أجمل من مانيّسا بنت النبي أجمل البشر؟، ألم يأمرنا الله أن نطمعَ في كرمه وعطائه؟"

- "لكنك تبغي الزواج منها لجمالها، والجمال يذوي مهما دام"

- "ومَنْ قال لك إنني أفكر في حسنِها وجمالِها وحسب؟ بل هي أكمل النساء على الإطلاق، الحسب والنسب، سليلة الأنبياء يا صديقي، أهنأك

من يُجاهها في ذلك؟ والمال والغنى، والأهم من
هذا كله يا يعقوب، دينها وإيمانها، جد لي من
يفوق بنت النبي في دينها!"

- "كلامك أقنعني يا أخي، ولكن.."

- "ولكن ماذا؟"

- "أنت تريد، لكن أين أنت من كل هذا؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أأنت جديرٌ ببنت النبي؟"

مالت الشمسُ إلى الغروب، ونادى عصفورٌ صغاره إلى
المبيت، ولم يجد إسحق ما يُجيب به صديقه:

- "تعني أن.."

- "كلنا نريدُ بنت النبي، كلنا نطمحُ في هذا، لكن
من فينا يستحقه؟"

وأطرق إسحق من جديدٍ، وسالت دموعه على خديّه:

- "إسحق يا صديقي، لا أحد منا جديرٌ ببنت النبي
يوسف، صدّقني.. لا أحد!"

وعدتُ من إسحق بن حور، إلى إيساف برصيصة،
بل إلى محمود كافكا كما يُخبرني الذئب.. ذئبي، عدنا
إلى زنزانة المسجد، تلك الغرفة المنقوشة أرضيتها، قلتُ
للذئب:

- "يُشبهني كثيراً إسحق هذا"

- "يُشبهك في الطبع والغاية وليس في الشكل فقط"

أتأملُ المكان حولي، عشتُ فيه أصعبَ لحظاتي، لكن
الفرجَ جاء منه أيضاً:

- "لماذا أتيت بي إلى هنا؟"

- "لأنه المكانُ الذي ظلمته كثيراً، وظلمه الكثيرون،
ستكون عودتك منه"

- "تعني أنني سأعودُ الآن؟"

- "هُم بانتظارك، ربما تعرفُ الآن كيف تعيشُ حياتك
يا كافكا!"

- "أيمكنني أن أسألك عن شيء؟"

- "بالطبع.. أنا طوعُ أمرك"

- "هل فاز إسحق ببنت النبي يوسف؟"

- "هذا ما لا أملك إجابته يا إسحق!"

- "أريد فعل شيء قبل أن أذهب"

- "أتود الاعتذار لنائلة؟"

- "ربما.. ولكنني ما قصدتُ هذا"

- "إذن.."

- "قصدتُ هذا"

وسجدتُ على الفور، في اتجاه السجود المُحدد، سجدة طالت وطالت، أليس ما عرفته هو أبطل الباطل، فلا شك أن عكسه هو أحق الحق، قمتُ من السجود وذهبتُ تجاه الذئب، ما زال هناك شيء آخر، قلتُ له:

- "لكنني.. لم أعرفَ مَنْ أنت بالضبط"

- "انظرُ في عيني.. تعرفُ من أنا"

نظرتُ إليه مليًّا، لكنه أوماً باسمًا:

- "انظرُ عن كثبٍ في عيني.. وقلْ لي ماذا ترى"

ودنوتُ منه، ونظرتُ في عينيه الواسعتين، توقعت أن أرى نفسي ولكن.. وجدتُ ذئبًا يُحدِّق بي! ذئبًا رماديًّا آخر.. يُشبهه ذئبي، أفي عيون الذئب فقط.. أرى نفسي ذئبًا؟! هنا عانقته.. كقطُّ أليفٍ لا أخشاه، وطفَّت دموعي لانتهاه كل العذاب.. بسببه:

- "لم أتوقع يومًا أني سأعانق ذنبًا، لكنك أنقذتني
فعلًا"

- "أنا معك دومًا، أنا بانتظارك يا محمود"

الجزء الرابع

صديق

- ١ -

- "مانيسًا"

قالها محمود بنفسه، فاتحًا عينيه يرمقنا:

- "محمود"

قالها الأب والأم في مزيجٍ من الشوقِ.. اللوعةِ.. الارتياحِ..
الحمْدِ؛ راح الاثنان يُعانقانه ويُقبلانه، يُبللانه بدموع
الفرح، لا يكفَّان عن حمد الله وشكره، يذكران اسم
ابنهما بين التحميدة والأخرى، وقفتُ أنا بعيدًا أبكي في
صمتٍ، النظرية نجحت إذن وتعبني لم يضع هباءً، أما
محمود فظل يرمقُ الكون حوله بلا تعبيرٍ، نظري طويلاً
ولم يقل شيئاً، رفع أبوه ظهره وأسنده إلى السرير فراح
يرمقنا كأنها المرة الأولى:

- "أنتَ أبي؟.. وأنتِ أمي؟!"

سأل محمود أبويّه، فردًّا بالإيجابِ في دهشةٍ:

- "محمود... ألا تعرفنا؟"

- "لا أعرفكم"

نظر الوالدان لبعضهما في قلقٍ، قلتُ مُتجهًا للباب:

- "سأنادي الطبيب"

- "انتظر يا عبد الملك"

قالها الأب متراجعًا عن مكانه، مدَّ يده مصافحًا
فمددتُ يدي إليه.. أخذ بيدي وألفيته يُعانقني بقوةٍ:

- "سامحني يا بُني.. سامحني أرجوك!"

ونظر لي، تملأ الدموع عينيه:

- "لا بأس يا عمي... لا بأس أبدًا"

وأخذ يدي إلى محمود سائلًا:

- "ألا تعرفه يا محمود؟"

- "لا أعرفه"

تقول الأم ودمعها لا ينقطع:

- "هذا من أنقذك يا محمود.. من أعادك إلينا"

- "أنت أخي؟"

يسألني محمود، فيجيبُ أبوه:

- "بل هو صديقك يا محمود.. أوفى صديقٍ لك"

- "صديقي هو من أنقذني؟!.. لا أصدق!"

وأنتِ الطيبُ وراح يسألُ محمود أمانا:

- "٥ × ٦ بكام يا محمود؟"

- "ثلاثين"

- "عاصمة فرنسا؟"

- "ما هي فرنسا؟"

- "أين نحن الآن؟"

- "لا أدري"

- "أتعرف اسمك الكامل؟"

- "محمود كافكا"

- "اسمك، وليس اسم الشهرة؟"

- "هذا اسمي الذي أعرفه، كما أخبرني الذئبُ"

- "الذئبُ؟!.. ومتى أخبرك الذئبُ؟"

- "في الحُلْم، قبل أن آتي إلى هنا"

- "كنت تحلمُ بالذئب؟"

- "حلمتُ بالذئب، وقال لي إنني سأعودُ"

- "ألم يُخبرك بشيءٍ آخر؟"

- "أخبرني عن بنت النبي يوسف"

عاد محمودُ إلينا صفحةً بيضاء، كما يحدثُ لمن يجري عمليةً جراحيةً في المخ، لا يعرفُ الكثير عن عالمنا وإن ذكر أن حياةً كاملةً كان يعيشُها في غيبوبته، لم يحلم بشيرلوك هولمز ومثله من أبطال الخيال كما ذكر صديقه أحمد جميل، بل عاش في عصرٍ عجيبٍ وبقوانينٍ أعجب، زمنٌ غابرٌ ما زال يُضاء بقناديل زيت الحوت وتُسمى فيه الميكانيكا بعلم الحيل النافعة، حوى الحلم تفاصيلَ حميمةً توترنا جميعًا لسماعتها، في رقوده الذي لم يُناهز الشهر قضي محمود سنين مديدةً وشهد طفولةً وشبابًا، فالزمنُ لا اعتبار له في الأحلام كما أخبرنا الأطباء، ذكروا كذلك أن هذا العالم يُعبر عن العقل الباطن لصاحبه، دواخل محمود في أعماق عقله، لكنني كنتُ أفهمه أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، سمعتُ منه القصة كاملةً مراتٍ عدة بمفردتي، وقارنتها بما عرفته عنه من التحري والبحث.

كل ما رآه محمود له شبيهه في التاريخ بالفعل، خاصة العبادات الإباحية وتفصيلها، منذ كانت احتفالات الخصوبة لدى الوثنيين، وحتى الآن تقرُّ بعض الأديان هذا النوع من التعبد، اللذة الجسدية لرضا الرب، قد يكون هذا خير دليل على نظرية الوجدان الجمعي، أي أن حلم كافكا الطويل لم يكن سوى ذكريات أجداده مجتمعة منذ أغبر العصور، أو ربما هي خبراته وقراءاته التي تحوّلت لقصة طويلة عاشها، بالفعل زار محمود الكثير من الأطباء ودرسوا حالته بدقة، كما أجرى أحد الصحفيين حديثاً معه خاصة أنه الأول على دفعته، بل الأول في تاريخ الكلية في ٣ ميكانيكا إنتاج!.

لكنه احتاج لخمسـة شهور كاملة كي يعتادَ عالمه الجديد وينسى الحياة التي عاشها في (العاهرة)، وأبطال حلمه الذين حملوا أسماء الزّانين والخائنين وأشرار التاريخ بخلاف صاحبي سجنه! كان يذكر حياة الحلم كذكرى ضبابية رغم كل شيء، نشرح له تفاصيل العالم الحقيقي كأنه طفل صغيرٌ يكتشف الدنيا، وهنا كانت الحلقة المفقودة، لماذا لم يرجع محمود إلينا بكامل ذاكرته؟ هل فقدناها أصلاً قبل الغيبوبة؟ لم ينشغل الأبوان بهذه الأسئلة وإنما تفرّغاً لعلاج ابنهما الذي عاد بعد غياب، كان محمود متجاوباً مع عالمه الأصلي كذلك، سهل التعلم، ويسعد بكل فضيلة

يراها بعد عُهرِ العاهرة! يتفاعلُ مع الناسِ بسلاسةٍ مثل
أصدقائه القدامى وأقاربه، وخاصةً أنا حيث تقربتُ منه
أكثر وصرتُ مُرشدَه الأول، يسألني دومًا عن طريقتي التي
اتبعتها لإنقاذه، ويسألني أبواه عن حكاية كلمةٍ مانيسًا،
لكنني أصمتُ مُفضلاً الانتظار حتى حينٍ.

وبالفعل وجدتُ في النهاية شيئًا، أزاح الكثيرَ من
الضباب، لن أخبرَ محمود عن بحثي واستنتاجاتي، هو من
سيُخبر نفسه بنفسه.

لستُ عبقرِيًّا، بالتأكيدِ لستُ كذلك، لكنني فقط
طوعتُ خيالي في البحث، فكرت بعقليةٍ كونان حين يحلُّ
ألغازه، كل شيءٍ مُمكن، والنتِ عَضدُ فكري، ولم ينقصني إلا
التجربة، وحين أجريتُ التجربة، أتت أكلها ولله الحمد،
هكذا فكرتُ بينما أسلكُ الطريقَ نحو مُدرج ٢٢٤ حيث
ينتظرني محمود، عاد إلى جامعته بعد الإعدادِ اللازم، كان
مُسالمًا مع زملائه في العام الدراسي الأخير، يرتاحُ لقدرِ
الاحتشام الذي يراه، يستقبلُ الهندسةَ بشغفٍ حقيقي،
مذهولًا بكلِّ التطور الذي بلغ العلمُ بجوار ما درسه من
حِيلٍ نَافعةٍ.

صعدتُ السلام مُسرِعًا، راغبًا في لقاء محمود بأسرع ما يُمكن، كي أعرِّض عليه كُنْزِي الذي وجدته، يُمكننا الآن أن نُصلِحَ كل شيء يا صديقي، دخلتُ المُدرج الصغير، كان خاليًا إلا منه، فالمحاضرةُ انتهت منذ ربع ساعة، ألفتِه جالسًا عند حرف البنش، في مكانه المفضل كما أخبرته، يشربُ شايًا في كوبٍ ورقي ويُطالع كتابًا ما، رأني فابتسمَ بودً، ذهبتُ إليه وصافحته مُقبلاً وجنتيّه:

- "أوحشتني يا صديق"

- "أنت أكثر"

- "كيف تجدُ مُتسعًا من الوقت لتراني كل أسبوع؟"

- "قلتها بنفسك! من الصعب ألا أجد ساعتين لصديقي كل أسبوع! أو على الأقل.. خمس دقائق لمكالمة هاتفية.. أليس كذلك؟"

يبتسمُ في امتنانٍ، ما زال يرمقُ الدنيا بدهشةٍ كطفلٍ حائرٍ، رغم كل ما تلقاه من معرفةٍ عن العالم، كل هذا يُمكن أن ينتهي الآن، وهو من سيقرر، غمزته مُبتسمًا أشير للشاي:

- "شاي بالياسمين؟"

- "وجدتُ نفسي أحبه كثيرًا!"

وأمسكتُ الكتابَ لأرى عنوانه:

- "السيرة النبوية للصّلاحي.. جميل، وجدتُ نفسك تُحبّ القراءة كذلك؟"

- "كما كنتُ هناك في الغيبوبة، أتعرفُ.. كنتُ أقولُ لنفسي، فلأغتنِ بكعوبِ الكتبِ عن كعوبِ النساء!"
- "فعلًا.. هذا خير اغتناء! لكن إياك أن تفعل ذلك حرفيًا!"

- "من السهل فعل هذا لو أردت، الكتب للأسف تعجُّ بالكعوبِ وما هو أسوأ.. أو أفضل!"

ضحكنا كثيرًا، تعوّد محمود عالمه الجديد فعلاً، بل لعله أدرك أنهما- العالمان- نفس العالم بشكلٍ ما، سألته:
- "أخبرني ثانيةً يا كافكا، هل الناس في العاهرة كانوا... بالكامل؟!!!!!"

يضحكُ محمود بإشراقٍ:

- "كالحيوانات تمامًا!"

- "بالعكس.. ملابس الحيوانات هي الريشُ والوبر وخلافه، أما نحن البشر فقد ترك لنا الله اختيار

ريشنا بأنفسنا! وماذا عن الشتاء؟.. ألا يوجد عندهم
بردٌ وصقيعٌ؟"

- "كان صيفًا لا ينتهي"

- "winter is not coming !!"

- "بالفعل!"

يسألني محمود للمرة الألف:

- "عبد الملك... لماذا حلمتَ بي؟"

وأصمتُ ناظرًا إليه قائلاً بصدق:

- "ألا يقولون إن الأرواح تتلاقى في الملكوت؟ لا تفسيرَ

لديَّ غير أن رُوحينا لهما نفس الرنين resonance!"

- "عرفتَ نظرية الرنين؟!.. تدرس الهندسة أيضًا يا

عبدك سان!"

- "هذا ما قرأته عن هذه الظاهرة، لسنا أول من يرى

أحلام الآخر"

- "حمدًا لله أنك رأيتني في الحلم.. فتحرّكتَ

وأنقذتني"

- "عرفتُ أنك تُناديني... وجدتُ نفسي أتحرّى مُتذكرًا

كلامك عن كونان! لكن... أتعرفُ؟ أنا متأكد أن أيَّ

صديقٍ لك كان سيفعل الأمر ذاته لو حلم بك"

بدا غير مقتنع، لكنه هزَّ رأسه بمعنى أن كلامي
قد يكونُ على شيء من الصحة، أتأمل الأفقَ عبر نوافذ
المدرج، أتحدَّرُ لما سأقول:

- "محمود... ليس الحلم المشترك هو الشيء الأعجب
بقصتنا، فأنت سألتني من قبلُ كثيرًا، كيف عرفت
أن إنقاذك بكلمة مانيسا حين أسمعك إياها فقط"
- "بالفعل..أتمنى أن أعرف"

- "ألا تسعدُ في حياتك الآن؟ أترغب في النبش في
ماضيك؟"

- "أخبرتني أنني عانيتُ كثيرًا من قبل، لكنني أحبُّ
أن أفهم، ما الذي فعل بي هذا، لماذا ذهبْتُ في
غيوبةٍ طويلةٍ هكذا؟"

أتهد رامقًا صديقي، أخرجُ من حقيبتني التابلت
الذي قرأتُ ما فيه مراتٍ لا حصر لها منذ أمس، أقول
لمحمود:

- "يقولون إن الكتابة نتيجةٌ معروفةٌ للقراءة، أن تقرأ
كثيرًا يعني أنك ستكتبُ حتمًا"
أمدُّ يدي إليه بالتابلت فيأخذُه:

- "بالأمس فقط، فكرتُ في البحث من جديدٍ باسمك على النت، لكن باليابانية هذه المرة، هنا وجدتُ مُدونة باسم ياباني، لذا ليست مشهورةً ولا يزورها أحدٌ، المدونة كانت كبيرةً جدًّا حوت فصولاً عامةً عن كل شيء، لكنني وجدتُ عناوين مميزةً مألوفةً لي بالذات عنك، جنس.. صداقة.. موت.. حب، شككتُ في الأمرِ فقرأتُها، اتضح أن المدونة تخصك، محمود العاشق للعزلة أبقى إلا أن ينعزلَ على النت كذلك، قرأتها كلها مراتٍ عديدةً، عرفتُ أن بحثي كان صحيحًا، عرفتُ ما شغل بال محمود كافكا بضراوةٍ في أحلك عصوره، ووجدتُ فيها كل ما فعله ليعالج نفسه، ليعوِّض ما فاتته من الدراسة"

راح محمود يُمرر أصبعه على شاشة التابلت غير مُصدقٍ:

- "وماذا كان اسم المدونة بالياباني إذن؟"

- "カフカント!!" (١)

- "هكذا!!"

- "سأدعك الآن لتقرأ وتفهم، سأحضرُ كوبًا من الشاي

ريثما تنتهي"

(١) カフカント ُنطقُ باليابانية... كافكاتون!

الجزء الخامس
س المدونة

ما عُدت أحتملُ، طفح كيّلي وما عاد في القوس مَنزَعٌ،
بكلّ تعبيراتِ البلاغة والأدب.. نغد صبري، أين الخلاص من
كل ما أقاسيه وأعانيه؟ كل الظروف تحالفت ضدي، كل
مشكلاتي عادت معًا لتَهزمني، أنا الذي عانيتُ منها كما
لم يُعانِ أحدٌ، أهذا مرضٌ أم وهمٌ؟ أجلدي رقيقٌ إلى هذا
الحدِّ؟ أم أُنِي محضٌ مخبولٌ؟

الجنسُ.. الحبُّ.. الموتُ.. الصداقةُ، كلها جاءتني تبغي
رأسي، وأين أنا الآن من السلام النفسي؟ أين أنا من راحة
البالِ وهناء الحال؟ ها هي ذي النتيجة.. رسبت في مادتين،
ولا أدري كيف أخبر أهلي، غير أنني عبرتُ مواد ثلاثة
بقواعد الرأفة، لولا هذه الرأفة لأعدتُ السنة من جديدٍ،
أنا؟.. أعيد سنةً كاملةً؟

مَا هَذَا الْجَحِيمُ؟

وهل للخروج من سبيلٍ؟

فكرتُ كثيرًا في المخرجِ من جَحيمي هذا، ولم أجد حلاً
سوى أن أتغير، وكيف لي بالتغير؟ كيف لي بالعودة كما
كنتُ؟ قبل أن يفعلَ بي الجنسُ وأخواته ما فعلوا؟ أحتاجُ

إلى سحر هاري بوتر، أحتاجُ إلى تعويذة النسيان كي أنسى..
كما كنتُ ناسياً من قبل..

أنسى أجساداً شبه عاريةٍ تفتنني في كلِّ شارعٍ وشاشةٍ
وصفحةٍ..

أنسى غرائزٍ دفينهً تُعذبنني..

أنسى حبيبةً لم أستطع حبها!

أنسى صديقاً نسيني ولن يذكرني..

أنسى موتاً أخذ قريبتني.. وسياًخذني ويأخذُ كل قريبٍ
وغالٍ..

أنسى الحبَّ..

أنسى الصداقة..

أنسى الموت..

أنسى الجنس..

لكنني لم أنسَ شيئاً، أمنيّةً مستحيلهً هي، كيف أنسى
ما لا سبيل إلى نسيانه؟ كيف أحييا دونهم بعدما عرفتهم؟
وبعدما ذهب من أنساني إياهم؟ لم أستطع العيش بمحض

نية النسيان، لأنني لم أبلغ هذا لوهلة، لذا سأسعى إلى ذلك سعيًا، سأنسى كل هذا، سأنسى قسرًا وإجبارًا، لكن كيف؟

ألا أجد طريقةً ما؟ أمامي شهرور العطلة الصيفية بأكملها، أمامي الإنترنت بأكمله، هل يمكن فعل هذا حقًا؟ بسحرٍ ما.. بتمارين روحية معينة.. يوجا أو أي شبيه، تعويذة نسيان هاري بوتر تلك.. ألا أجد لها شبيهًا في الواقع؟ أحتاج النسيان الخام.. التام.

سأبحثُ وأبحثُ ولن أملَّ البحثَ لحظةً، حتى أنسى...

قضيتُ أربعة شهور في البحث، وأخيرًا وجدتُ طريقة، وجدتُها حقيقةً واقعةً بخطوات عمل وملاحظة واستنتاجٍ كما كنا ندرس تجارب العلوم، يقولون إن التنويم المغناطيسي من السحر، تبدو الطريقة التي سأتبعها سحرًا بالفعل، لكن هذا لن يحجمني عن خطتي، سأنسى من أجل مستقبلٍ أفضل، سأنسى من أجل أبي وأمّي، سأنسى ما لا بد من نسيانه حتى تستمرَّ حياتي.

وأعددتُ كل شيء، فقد فكرتُ مرارًا وتكرارًا في خطتي، سأنسى مشكلاتي الأربع، لكنني أعرفُ أن النسيان التام

سيجعلني نسيًا منسيًا! سيحطمني ولن يجعل مني إنسانًا؛ فكل شيء من الأشياء الأربعة هو قطعة من روحي، الجنس مثلًا، خبرات كثيرة ومعارف أكثر تحيط به، هل سأعود مرةً أخرى لأسأل غيري: كيف أتيتُ إلى هذه الدنيا؟! هل سأسأل عن معنى الصداقة المجرد ولن أعني معنى أن فلانًا صديقي؟! أو أن شخصًا ما مات.. أو أني أحب أبي وأمي؟

سأحتفظُ من كل شيء بما أحتاجه فقط للعيش، سأنزعُ ذراعي لكني سأبقي على أصابعي! لا يبدو التشبيهُ معقولًا.. لكن حياتي الآن ليست معقولةً هي الأخرى.

لهذا سأنسى مع الاحتياط لكل هذا، خططتُ أن يبقى المعنى الأصلي في رأسي، إذ كتبتُ منه ما أحتاجه فقط في ورقةٍ دسستها في مصحفِي، كل شيء مكتوبٌ مع مرادفاته المحتملة التي سأسمعها في حياتي اليومية، إليها سأنظرُ كلما احتجتُ إلى تذكر ما نسيتهُ، هذا النزُرُ اليسيرُ سيُعوض الفجواتِ الهائلةَ في عقلي وإدراكي للأمور، سيكون علمًا ينفعُ وجهلاً لا يضرُّ.

أما الخبرةُ الكاملةُ التي وصلت إليها بأعوامِ عمري كله عن المشكلاتِ الأربع والتي أودُّ الخلاص منها، فلن أخسرها أيضًا ولن أقلق بصددها، فالسحرُ يسمح لي

بالعودة كما كنتُ، لا يحتاج الأمرُ أكثر من الوقوفِ أمام
المرآة وترديد كلمة السر ثلاث مراتٍ على مسامعي،
عندها يعودُ عقلي كما كان طبيعيًا تمامًا قبل النسيان،
اشتريتُ خاتمًا و كتبتُ داخله كلمة السر، هي مناسبةٌ
جدًّا لهذه الخطة، واستعصتُ عن المرآة بتطبيقٍ يجعلُ
خلفية هاتفي كالمرآة عن طريق الكاميرا الأمامية، ستكونُ
مرآتي معي في كل وقتٍ ما احتجت إليها، والعودة مضمونةٌ
في كلِّ حينٍ.

الآن أسألك نفسي كثيرًا قبل فعلها... هل أعني حقًا
ما أنتوي فعله؟ أنا الآن في طريقي لحذفِ قطاعاتٍ
كاملةٍ من ذاكرتي بطريقةٍ هي إلى السحر أقرب، أربعة
أشياء.. أربعة أمور، صارت أربع مشكلاتٍ تُورقني.. تقضُّ
مضجعي.. تدكُّ بالي، كيف سأضحِّي بعدما أزيلها تمامًا إلا
أقل القليل، أحتفظُ بالقواعد فقط بينما أقوِّض صروحًا
مهمَّةً في وعيي وذهنِي وكيونتي؟

وهل أنا وحدي الذي تأذى وعانى من أمورٍ كهذه؟
حُب مستحيلٌ.. وصديقٌ خائنٌ.. وأحبابٌ يموتون.. وغرائز
حاميةٌ؟ لستُ الوحيدَ حتمًا، لكني الأشد في الأذى والضرر،

جروحي ثخينَةٌ وألمي شديدٌ، بل إني لا أجدُ لنفسي عيشًا
وسط هذا العذاب، أنا مغلوبٌ على أمري.. أنا مُضطرٌّ.

بل إن عقلي ليغريني بالتفكير بشكلٍ آخر، ماذا عن
النسيان وماهيته من الأصل؟ فحتى دون هذه التجربة
العجيبة، أنا أنسى بطبيعتي أكثر من اللازم، أنسى البراد
على النار، أنسى إيقاظ أُمي في الموعد كما طلبتُ مني،
أنسى تناول العلاج في أوقاته! أنسى مكان مفتاح البيت،
أنسى بضراوةٍ.. نسيانٌ مَرَضِي مخيفٌ.

بل إني كنتُ أنسى أمورًا أخطر، ذنوبي وخطاياي التي
ارتكبتها، أخطائي التي أكررها مرارًا.. لأنني نسيتها! مواقف
الآخرين معي التي على أساسها سأعاملهم، معلوماً في
الهندسة التي تهمني أكثر من كل شيء آخر، لماذا أنسى
قوانين الموائع ولا أنسى أحداث هاري بوتر؟ لماذا أذكر
التفاصيل الحميمة وأنسى أحداث السيرة؟.

كان النسيانُ حاضرًا في عالمي ربما أكثر من أي شخصٍ،
وعانيتُ مثالبه كثيرًا، لكن مشكلتي ليست أنني أنسى،
بل مشكلتي أنني أنسى أنني أنسى! وأعود مرةً أخرى إلى
نسياني، ولكن.. الآن فقط سأوظف النسيان كما ينبغي،
سيكونُ النسيان حليفي وليس ضدي، لماذا أنسى كل شيء
إلا مشكلاتي؟

سَلْ أَيِ إِنْسَانٍ عَمَّا يَحِبُّ أَنْ يَنْسِيَ لَوْ أَتَيْتِ لَه
الْفُرْصَةَ، وَسَيَتَلَوُ عَلَيْكَ قَائِمَةٌ طَوِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَنَا كَذَلِكَ..
أَنَا صُدِّمْتُ بِشِدَّةٍ وَعِلَاجِي الْوَحِيدُ هُوَ النِّسْيَانُ، وَلَا
أَسْتَبْعُدُ أَبَدًا أَنْ الطَّبِّ الْحَدِيثُ قَدْ تَوَصَّلَ لِتَقْنِيَةِ طَيِّبَةٍ
مَا تُنْسِي الْمَرْءَ مَا يَرِغِبُ بِنِسْيَانِهِ، لَكِنْ شَيْئًا كَهَذَا رَهْمًا
أَجْدَهُ فِي بَلَدٍ كَالْيَابَانِ فَقَطْ! فَمَنْ أَيْنَ لِي بِتَكَالِيفِ النِّسْيَانِ
الْيَابَانِيِّ (الْحَدِيثِ)! سَأَفْعَلُهَا كَمَا عَرَفْتَهَا.. سَحْرًا أَوْ غَيْرَهُ، مَا
مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ.

سَامِحْنِي يَا رَبِّي، وَاكْتُبْ لِي نَجَاحًا لِخَطَّتِي، وَمِلَادًا مِنْ
عَذَابِي.

حَانَتْ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ أَخِيرًا، مَا مِنْ أَحَدٍ فِي الْبَيْتِ،
الْمَرْأَةُ أَمَامِي، الظَّلَامُ طَاغَ إِلَّا مِنْ شَمْعَتَيْنِ عَنِ يَمِينِي
وَيْسَارِي، الْأُورَاقُ فِي يَدِي، وَالْهَاتِفُ الَّذِي سَيَكُونُ جِهَازَ
التَّسْجِيلِ الَّذِي يُمْلِي عَلَيَّ الْأَوَامِرَ، أَكْتُبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
قَبْلَ الشَّرُوعِ فِي التَّنْفِيذِ، تَهْتَرُ يَدِي بِشِدَّةٍ وَيَجْفُ حَلْقِي،
هَلْ أَتَرَاوَعُ؟.. هَلْ أَتَقَهَّقُرُ بَعْدَمَا غَزَتْ جِيُوشُ الْيَأْسِ
كُلَّ قَلَاعِي؟ لِمَاذَا يَكْتَنِفُنِي هَذَا الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ؟ وَكَأَنِّي
أَرْتَكِبُ جَرِيمَةً فِي حَقِّ نَفْسِي؟

جريمة؟.. أية جريمة؟ الجريمةُ هي أن أدعَ نفسي تهوي
دون التشبث بأي أملٍ ينقذني، الآخرون يُعاقرون الخمرَ
لينسوا، يتعاطون المخدرات أو يزنون، أنا لن أفعلَ مثلهم،
سأنتهجُ طريقتي الخاصة للنجاة، يخطرُ لي سؤالٌ منطقيُّ
مُهم:

- "لماذا لا تنسى وسط زحام العمل والكدح كدَيَدِنِ البشر؟"
لا عمل.. لا كدح أو بذلاً لمجهودٍ، ما دامت تلك الأغلال
تُكبلني، وإذا حاولت المشي تعرقلني، سأنسى أحزاني..
سأنسى ما ينبغي نسيانه.

انتهيتُ لتوِّي، رأسي يؤلمني قليلاً، لا أشعرُ بشيء سوى
الخواء التام، بمعنى آخر... لا شعور من الأساس، لكن
ماذا عن سلامي الداخلي وصفاء سريري؟ عقلي كقرصٍ
صُلِبٍ تمت تهيئته format من جديدٍ، ذهني أصفى من
الماس، ماذا أردتُ أن أنسى؟ لحظةً.. سؤالٍ هذا يعني أنني
نسيْتُ!

سأقرأ الآن ما كتبته في الورقة عسى أن أتذكر، الجنس...
الحب.. ما هذه الأشياء؟ لا أعرفُ عنها شيئاً!

بدأت العام الدراسي كأفضل ما يكون، أصعب المواد لا
تمثل لي أكثر من مسائل جمع و طرح بدائية، ذهني يقبل
كل شيء ولا يشكو لحظة، أين كانت هذه الروعة من
قبل، ما الذي كان يشغلني هكذا؟ ما تلك المواد البلهاء
التي رسبتُ فيها في العام الماضي؟! لنرَ الآن ما كنتُ أحاولُ
نسيانه، الجنس.. الحب.. الصداقة، يا للسخافة! بالأمس
اتصل بي صديقٌ قديمٌ ولم أعرفه من الأساس! لعله الصديقُ
الذي نسيْتُ الصداقةَ من أجله أصلاً!

محمود كافكا يتكلم، وقد صار الأول على الكلية بلا
منازع، مرّت اختباراتُ نصف العام على خيرٍ، بل على كلِّ
خير، وحين ظهرت النتيجةُ كانت أكبر دليلٍ على نجاح
الخطّة، غير أنني صرْتُ أنسى أكثر من اللازم، زادت نظراتي
في الورقةِ إياها متحجّجًا بأنني أحفظُ القرآن بأسرع وقت،
هل يعني هذا شيئاً؟ هل تأثر عقلي بالتجربة وصارت
ذاكرتي متطايرةً كذاكرة الحاسوب قصيرة المدى RAM !

ما حاجتي أصلاً إلى تلك الأشياء؟ أنا الآن في أوج انطلاقي
ومستواي العلمي والعملّي، أنا لا أفكّر في شيء مما بتلك
الورقة، وقتي كله للمذاكرة وحسب، أليس من الأفضل

لنا أن ننسى ما يُؤذينا ويُعذبنا، أليس النسيان نعمةً من خالقنا؟ حتى إنني فكرتُ في إضافة أشياء أخرى لأنساها إلى الورقةِ، أشياء من الجيد نسيانها... العرب وفلسطين! ومعهم سوريا وبورما طبعًا، لكنني لم أتخذ قراري الأخيرَ بهذا الشأن، على كلِّ حالٍ ما زال معي خاتمي وكلمة السر، أستطيعُ العودة في أي وقتٍ لنقطة البدء.. لكن ليس الآن.. ليس الآن.

فالآن قد أصيرُ مَلِكَ العالم كله، بمحض نسيان منغصاتِ حياتي!

اليوم ضاع مصحفي، نسيته في المسجد لو أردنا الدقة، زاد نسياني للكثير من الأشياء بخلافِ الدراسة، حتى إنني نسيْتُ اليومَ رقم الحافلة التي أستقلها إلى منزلي، يُمكنني العودة الآن لحالتي الأصلية بالكلمة على الخاتم ومَن ثم كتابة ورقة أخرى، لكن لا داعي لهذا، امتحانات آخر العام دنت بشدةٍ، فلأنس ما أردتُ نسيانه!.

ينقضي امتحانٌ واحدٌ وينتهي العامُ بأكمله، مشكلةٌ واحدةٌ حدثت الآن، فقدتُ خاتمي الذي به الكلمة دون

قصدٍ أثناءِ الوضوء، هذه المرةُ دون قصدٍ فعلاً، لأنني حاولتُ التخلّصَ منه كثيراً من قبل، لـرغبتني في نسيان كل ذكرياتي المزعجةِ دون رجعةٍ، وفي كل مرةٍ أعودُ لأسترجعه من جديدٍ، ضاع الخاتمُ الآن.. بلا رجعةٍ، ولكن فلأنسَ هذا الآن، المهم هو الامتحانُ الأخيرُ فقط..

أنهيتُ العام، لكنني انتهيتُ، لا أعرفُ كيف أعودُ لحالتي، هل هذا مهم؟ لا أظن، سأعيشُ الآن حياتي ولو ناسياً، صحيحٌ أنني لا أستطيع فهم الكثير من الأمور، وكنت أعتزلُ العالم كله بحجة المذاكرة، والآن مع انتهاء العام.. ما حجتني؟ لكنني الآن أفضل من ذي قبل، رغم كل هذا، أنا لا أعاني آلاماً من أي نوعٍ، وينتظرنني نجاحٌ باهرٌ، فلأعشُ بأي طريقةٍ إذن، لا بأس.. لا بأس.

لكنني ما زلت أشعر بالضياع.. بالتيهٍ وسط أعقد متاهةٍ، لا أدري ماذا أصابني، فكرتُ بالعودةِ إلى المسجد والبحث عن المصحف، لا أحدٍ سيأخذه بالطبع، سيبقى مع المصاحف الأخرى، بالفعل وجدته... شكله مميز ولكن... لم أجد الورقة بداخله، ما العمل الآن؟ ليتني كتبتُ ورقةً

أخرى.. ليتني احتفظت بكلمة السر في مكانٍ آخر، لماذا أقول هذا؟... لأنني نسيتها! كما أنسى كل شيء آخر، ضاع مني الخاتمُ أثناء الوضوء، فهل أراد لي إلهي أن أضيعه إذن؟ هل هذا هو عقابي وجزائي حقًا؟

ضاعت كلمتي المنجيّة.. ونسيتها، فأنا لم أسجلها على الخاتم سوى لخوفي من نسيانها، والآن هل كُتِبَ عليّ أن أعيش بلا ذاتٍ وروحٍ؟ ماذا أردتُ أن أنسى أصلًا؟! أهنالك مكانٌ آخر أعتزُّ فيه على ما فقدت؟ ولو كان موجودًا... هل سأذكره؟ أخشى أن أنسى مكان هذه المدونة أصلًا... نعم المدونة، كتبتُ فيها الكثيرَ عن نفسي سأعودُ لأقرأ ما كتبتَه علّه يُساعدني.

لم أفهم شيئًا.. لأني لا أذكرُ شيئًا، هي خواطرُ شخصٍ يائسٍ وحسب، لكن كل ذكرياتي وخبراتي مُبادئة، هل أدركتُ الآن بعدما انتهت الامتحانات ما فعلته في حق نفسي، صرتُ أنسى كل شيء إلا الهندسة، أصابتنِي التجربة بأذى لم أتوقعه، اليوم نسيْتُ اسم أمي! فقدتُ القدرة على معاملة غيري تمامًا، أنا محضُ آلةٍ للمذاكرة فقط،

أين الحل الآن.. ومَن لي بالخاتم الذي ضاع وضاع معه
وجودي وروحي؟

ماذا سأنسى مجدداً، وإلى أيِّ حالةٍ سيؤول موقفي؟
أشعرُ كمن يسقطُ في هاويةٍ بلا قرارٍ، لا أطول سماءً ولا
أبلغ أرضاً، رأسي يُؤلمني على الدوام، لكنني لن أبوحَ بشيءٍ
من قصتي لأيِّ مخلوقٍ، أنا مَن أذيتُ نفسي، سأبقى
هكذا حتى يتغمدني إلهي برحمةٍ منه وفضلٍ، الإله.. ماذا
كان اسمه؟.. ماذا كان اسمه؟!

رِخَائِمَةُ بِقَلَمِ
«عَبْدِ الرَّحْمَنِ»

عُدتُ لمحمود كافكا، للشخص الذي حاول نسيانَ
أحزانه ففعل هذا حرفياً بسحرٍ ما، وقد نسي بالفعل
كل شيء عدا دراسته، حتى أصابته تجربته بغيوبه، وفي
غيوبته عادت أحزانه لتطارده في شكلٍ جديدٍ، لتنتج قصةً
أخرى بطلها إيساف برصيصة! وأنا عبد الملك الذي أعاده
من غيبوبته حين فهمتُ السحرَ بشكلٍ ما، وجدته يُحدِّق
في الأفق مفكراً، انتهى من قراءة مذكراته إذن، ولعله الآن
يُقرر... هل يفعلها؟ توجَّهت إليه مُبتسماً لكنني وجدته
واجماً حزيناً:

- "ما الأمر؟"

ردٌّ في تودة:

- "هكذا أنقذتني إذن... بمعرفتك للكلمة الصحيحة"

باسماً أجبته:

- "بعد كل تحليلي.. كنتُ موقناً من شيءٍ واحدٍ ولا
أدري كيف فعلته... أنك نسيت، بل أنسيت نفسك
بشكلٍ ما، حبيبتك وصديقك وأموراً أخرى، لماذا
يحتفظُ من أنسى نفسه كل شيء بخاتمٍ عليه كلمةٌ
معينةٌ؟ لأنها مهمةٌ جداً بالنسبةٍ إليه، توافق هذا
مع تخميني أنك وقعتَ في الغيبوبة لخللٍ أحدثته

برأسك، ولا بد أن لهذا علاقةً بالكلمة المهمة على الخاتم، كانت نظريةً مجنونةً ونسبةً نجاحها نصف بالمائة، لكنها كانت كل ما أملك، وكانت متحققةً بشيءٍ من الخيال، أنت حققت الخيال بالسحر كما تحكي، ومن أنت عرفت أن الأمر ممكنٌ، قرأتُ الطريقة مباشرةً من موقعٍ على الشبكة العميقة، فلن يكون الوصولُ لسحر كهذا بالسهل عبر الشبكة العادية، أنت فكَّرت هكذا طبعًا، وفي نفس الوقت تتبعت كل شيءٍ حتى عرفت الكلمة، الكلمة التي تعني مباشرةً أنك نسيت أحزانك بها"

- "ولهذا لم أعد بكاملٍ ذاكرتي، تحقَّق نصفُ الشرطِ فقط بقولِ الكلمة ثلاث مراتٍ، أفقتُ من الغيبوبة فقط"

أُعلِّقُ في مَرَحٍ:

- "تخيَّل لو أنني اكتفيتُ بقولِ الكلمة مرةً واحدةً أو اثنتين!"

لكن محمود لم يتسّم.. يصمتُ لوهلةٍ ثم يُوجه السؤالَ لنفسه قبلي:

- "أنا... أنا فعلتُ هذا كله من أجل.. من أجل ماذا؟"

أصمتُ ناظرًا إليه بتأييدٍ، أقول بصراحةٍ:

- "من أجلك أنت.. فعلتَها في لحظةٍ ضعفٍ، فعلتَها لتنسى أحزانك، إذ يبدو أن سبيلًا غير هذا لم يكن متاحًا لك، أنت المتناسي الأعظم! مَنْ فينا لم يُحِبَّ يومًا أن ينسى ما يريده مثلك؟! كلُّ الشبابِ العزَّابِ يتمنون لوهلةً أن ينسوا حاجتهم للجنسِ الآخر حتى يُدبروا المالَ الكافي للزواج على الأقل، ماذا عمّن ماتت أمه مثلًا؟ ستجده مُستعدًّا لفعلِ أي شيء حتى ينسى مُصيبته العظمى هذه، كما أن أفضل حلٍّ لمن خانك من الناس هو أن تتجاهله كأنك لم تعرفه يومًا، كنتَ على وشك أن تنسى أنك عربي كذلك! وأن ثمة بقعةً معذبةً في العالم تخصك وتُدعى فلسطين ولا تستطيعُ فعل شيء من أجلها أو أخواتها، صدَّقني يا كافكا، ما نحب نسيانه كبشرٍ لا حدَّ له، أما بالنسبة لنا كعربٍ.. يتضاعفُ ما نريد نسيانه! وكمصريين.. ضاعف هذا لأضعافٍ مضاعفةٍ!، بل إننا نفعل هذا بشتى الوسائل في كلِّ يومٍ، تخطئنا كل الأمم في التجاهل، نُحب التناسي لا شعوريًّا بمبارياتِ الدوري المصري أو الأوروبي رغم البؤن الشديد بينهما! نسعى له بفيلمٍ لراقصةٍ

مصريةٍ أو أرمينية! لكن ليت النسيان حلًّا، أنت
جربته حرفيًّا.. فهل وجدته ناجعًا؟... أعثرت فيه على
ذاتك حقًّا؟"

يصمتُ.. ناظرًا لأسفل، تسقط دمعَةٌ من رموشه
للأرض، أقولُ مُشجِّعًا رابتًا على كتفه:

- "لكنك الآن تقدر على العودة، على إعادة كل الأمور
إلى نصابها"

لا يردُّ مُجددًا، كطفلٍ غريبٍ يُخبرونه أن مصيره بيده:

- "لكني الآن أعرفُ كل ما نسيتَه"

- "تعني معنى الموت.. والحب.. والجنس؟"

- "أعرفهم.. أعرفهم جميعًا، عشتُ حياةً كاملةً هناك
في العاهرة وعرفتهم و.."

بدا حائرًا لم يزل، فقررتُ مساعدته فورًا، أخرجتُ
هاتفِي، اخترتُ الكاميرا الأمامية، ناولته إياه، راح ينظرُ
لنفسه كأنه يلومها:

- "الآن... الأمرُ بيدك، قُلْ مانيسًا ثلاث مراتٍ.. تعدُّ
محمود كافكا القديم"

واستمرَّ محمود ينظرُ، ولا يُحرِّكُ ساكنًا، وأنا أنتظره،
وأتساءل كل ثانية...

هل سيُفضل العودة؟ ويتذكر كل ما ألمه وأحزنه
وأعجزه؟ وهنا وجدنا من يدخل المدرج الصغير، فتاةً
طويلةً بصفيرةٍ بدا أنها تظن أن ثمة محاضرةً تُقام هنا،
دارت بنظرها في المكان حتى رأتنا، من غيرها؟.. ياسمين
طبعًا! بادلتنا النظرَ للحظةٍ بلا أي تعبيرٍ.. وحدقت بمحمود
للحظةٍ، لحظةٍ بدت كدهرٍ، وأخيرًا هزّت رأسها تحيةً لنا
مع شبح ابتسامةٍ، واستدارت خارجةً من باب المدرج.

نظرت لمحمود الذي خرج من شروده وابتسم في حنين!
حكيتُ له عنها كثيرًا لكنه لم يرها قط.. في الواقع بعد
عودته، قال باسمًا:

- "تلك هي.. نائلة!"

- "أعرف!"

لكنه عاد لمراته في الهاتف، وعاد لوجومه وحيرته،
وعُدت أنا لأتساءل:

هل يقولها كافكا الآن؟

هل يفعلها ويعود؟

هل؟!!!!

الخاتمة بقلم
"محمود كافي"

حكوا عنه الكثير، وقرأتُ عنه أكثر، لا شيء نافسه في ذكره وسطوته، تفنن الجميع في وصفه، غصت به الأشعارُ منذ عرفنا الكلام، تلقفته حناجرُ الطرب والغناء، الكل شدا به، الكل وله به، الكل أرادَه بشدةٍ، فلا شيء يُضارع لذته ووفعه في النفوس، لذا بذل الجميعُ في سبيله كلَّ عزيزٍ وغالٍ، وجرت من أجله البطولاتُ والملاحمُ، وظلت حكاياته ومآثرُ أبطاله حاضرةً خالدةً ما دام الزمانُ، فهل عرفته أنا الآخر؟.. عرفته، معك أنتِ!

عرفتُ الحب يوم أحببتك، يوم عشقتُ سكناتك وحركاتك، تفاصيل وجهك.. رمشات عينيك.. لفظات لسانك، هل أبالغُ؟.. هل أغالي في مشاعري وأقوالي؟ لا أظن.. ولا أظنك تعرفين ما بداخلي، لا يسعني إلا أن أخبرك بصراحةٍ، ما خبرته معك من إحساساتٍ لا يُضاهيه شيء آخر، أجمل شعور.. أزهى عصورٍ عرفتها معك، ذاكرتُ معك كما لم أذاكر.. بلغتُ قمة نجاحي ومجدي وسعادتي، أكل هذا لم يكن سوى روعة الحب الأول الساذجة المؤقتة؟ أكانت مشاعري محضَ أفاعيل الكيمياء في الرأس والجسد؟ دوبامين وسيروتونين وما شابه؟

قالوا لي أنت غريبٌ غصُّ، أنت لا تعرفُ شيئاً عن الحب الذي تتشددُّ به، أين أنت من حبِّ العبد لربه؟

أو لدينه ورسوله؟ ماذا تعرفُ عن حبِّ الابن لوالديه؟
حُبُّ الوطن.. والأرض، حُبُّ العلم والمعرفة، أكدوها لي
صريحةً، لست إلا مغبونًا تعيشُ زيف التجربة، ستفيقُ
منها بعد حينٍ، وتعودُ لرشدك وتُدرك مأساتك إذ وضعت
حبك في المكان الخطأ، وماذا عنك أنتِ؟.. أتوافقينهم على
قولهم؟ أعرفُ أنك لا تُبادلينني المشاعر.. ولم تفهمي كلماتي
القليلة معك ولكن.. ولكن ماذا عساي أفعلُ.. يا مانيسًا؟

ربما هم على شيء من الحق، فأنا لم أعرفك عن قربٍ،
ربما لم أعرفك على الإطلاق! إذن فهو الإعجاب وليس الحب،
الإعجابُ بوجهك الأسطوري الذي فعل بي الأفاعيل، أو هي
نظرةُ التقديس التي يُوجهها منطوٍ مثلي لأي أنثى جميلةٍ
وكانها كائنٌ نوراني جميلٌ ليس أكثر.. كما يقولُ المحللون
النفسيون! فالحب أكبر من هذا.. أقدس وأعظم بكثيرٍ
ولكن.. ولكنني أحببتك! أحببتُ حبك.. وأحببت عالمي
بك، حين كلمتك.. تمنيت أن أخبرك عن الشيء الوحيدِ
الذي يُقصيني عنك، شَعرك المكشوف.. وملابسك التي لم
تتعمدي أن تكونَ مثيرةً، لكنها حتى إن لم تكن كذلك لي
أنا، كانت مخالفةً للدين وللمجتمع، رغم أنهما- الدين
والمجتمع- مختلفان عندنا كما يكون الاختلافُ والتباينُ!

كدت أخبرك بكل شيء، لكنني جنتُ عن هذا،
خشيتُ ردة فعلك، خشيتُ أن تُواجهيني بالحقيقة
نفسها من ناحيتي، أنا نفسي لا أطبق الدينَ وفروضه
كما ينبغي! ولا مجتمعي بأكمله الذي نشأت على عُرفه
وشرعه! مجتمعي المتناقض الذي يكاد يُضاهي الفريسيين
في حبِّ المظهر فقط وإغفال الجوهر! مجتمعي الذي
فيه أَلْفُ رأيٍ وأَلْفُ مُحلِلٍ وأَلْفُ مُحَرِّمٍ، كأنه أَلْفُ دينٍ..
وليس دينًا واحدًا، المُحلل زنديقٌ فاسقٌ، والمُحرِّم رجعي
متخلفٌ! اهتموا بسفاسفِ الأمور وخاضوا في الفروع
ناسين الجذعَ نفسَه، ناسين العملَ والنجاحَ والتميز الذي
رأيتك أنتِ - بملابسك هذه - تسعين إليه سعيًا! كيف أجدُ
نفسي كمؤمنٍ بين كل هذا؟! أنا الذي احتار في اختيار
لوني المُفضل منذ الصغر!

أعودُ لحديثي معك عن الحبِّ، الحبُّ جميلٌ يا
مانيسًا.. أيًا كان شكله! حتى لو كان مثل حبي! أتعرفين
قصة الجيش الذي توجهَ لغزو مدينةٍ، فوجد على أطرافها
أحد شبابها يبكي بحرقَةٍ، فسأله قائدُ الجيش عما يُبكيه،
ليجيبَ الشاب أنه أخفق في إصابة الهدف عند الرمي
بالسهام، هنا أمر القائدُ جيشَه بالرجوع فلا يمكنه غزو
مدينة أهلها كهذا الشاب الطموح، وبعد عشر سنين تكرر

الموقف، سار القائدُ بجيشه تجاه المدينة ووجد شاباً آخر يبكي، وحين سأل عن السبب أجابه الفتى أنه يبكي لفراق حبيبته، ليطمئن قلب القائد ويأمر جيشه بالتقدم فالغزو صار سهلاً مضموناً، هنا تنتهي القصةُ وأسائل نفسي.. هل الفتى الأول لم تكن له حبيبةٌ؟ أم لعله اطمأن إلى حبيبته فاهتم برمي الأهداف!

لستُ أول من أحب بهذا الشكل الأحادي! فقد سبقني دانتلي أليجيري في إيطاليا، وسيرانو دي برجيراك في فرنسا، وحسن المرواني في العراق، المرواني الذي يقول عن حبه الشبيه بحبي:

إني بغيرِ الحُبِّ أخشابٌ يابسةٍ ... إني بغيرِ الهوى أشباهُ أمواتٍ!
وهناك غيرنا الكثير ولكن رغم كل هذا، كان حلمًا لا يُوصف بكلماتٍ، عشتُ فيه السعادة والانطلاق والتقدير المرتفع، وأفقتُ منه حين رأيتُ استحالة الوصول لقلبك، وانتكستُ بشدةٍ بعدها يا مانيسا، حين هاجمني الأعداء قاطبةً، هاجموني بلا رحمةٍ، إذ عدت وتذكرتهم! هل كان يكفي فقط أن أتذكرهم ليعودوا؟!.. أي نوعٍ من الأعداء هذا؟! أنساهم فيتركوني.. وأتذكرهم فيعودوا من جديدٍ؟ والآن لا أدري ماذا سيفعلون بي، فقد كنتِ يا مانيسا.. ملاذي ونجاتي ولذا أسميتك مانيسا!

لأنك فعلتِ بي نفس ما فعلته مانيسًا ابنة النبي
يوسف عليه السلام، أنسته أحزانه كما أنسيتني أنتِ
أحزاني، بل إن حروفَ اسمك هي ذاتها حروفُ اسم بنت
النبي! وإن كنت لست ببنت النبي في مظهرك وأخلاقك،
فأنا أيضًا لستُ كذلك، لستُ ابن النبي التقي الورع،
لكنني أحببتكِ وسأحب حبك دومًا.

بحبكِ سموتُ على غرائزي واقتربتُ نوعًا من أخلاق
الأنبياء! حين قدّست حبك فصار شامخًا في سمائي وهجرت
كل ما أدناه! ولم أنظر لوجهِ أنثى أخرى سواك فضلًا عن
التضاريس الأخرى! حتى مسابقات ملكة جمال العالم
كنت أعافها طوعًا وأنا العاشق لكل جمال... فقد اكتفيتُ
منك! هجرتُ كراخانات الفكر هجرًا، وما أكثرها في ذهني
وذاكرتي يا مانيسًا! حتى حين كانت إحداهن تنظرُ لي،
كنتُ أزهد في النظر لها قانعًا بحبي الصامت لك! كل
هذا دون أن أقترَب منك بما يكفي! فماذا لو اقتربت؟!

- "ولكن لماذا؟"

تسأليني لماذا يا مانيسًا؟ لأنك.. لأنك أنتِ! لأنك
أجمل شيء حصل لي، لأنك الياسمين الذي عطرَ ديتي،
لأنك نعمةُ الحب والنسيان التي اكتفتني، لأنك مانيسًا،

لأنك بالنسبةِ إليّ.. بنت النبي يوسف، فماذا سيُصيّبني الآن
دونك.. ودون حبك المنسي وسلواك!؟

المَقَالُ الأَوَّلُ بَمَدَوْنَةَ

カフカトン

(ورقة في مذكرات أحد طلاب كلية الهندسة)

حُب/ عشق: أسمى علاقة بين اثنين، خاصة بين رجل وامرأة.

حوت/ وفاة/ عنية: رحيل عن الدنيا إلى دنيا أخرى.

صداقة/ صُحية: هي علاقة بين اثنين أو أكثر، تعني معرفة الاسم وبعض

الصفات والتاريخ المشترك بين الأصدقاء والأصحاب.

فلسطين:

العرب:

اليوم الأربعاء، والثلاث مسجدة الليلية، بعد محاضرات الهندسة المدنية صليت الظهر وأليت قراءة ما يتيسر من القرآن، اخترت مصفحاً من أحد الرفوف وانهمكت في قراءة معسوقي سورة يوسف، وبينما أقلب الصفحة، وجدت هذه الورقة مدرسة مبرص بين الصفحات، بفضل بشرى عتيب فزنتها وقرأت ما بها.

في البداية صدمت بالتعريف الثاني الذي سطنته بمجرد رؤيته وكنت أمزق الورقة فور انتهائي من قراءتها، لكنني رضخت لإغراء الاحتفاظ بها، ربّما لما فيها من أفكار تأملية، فما الذي يدفع أحدكم للكتابة كلام كهذا؟ وما الرابط بين ما كتب من تعريفات؟.. بين العشق وفلسطين! حقيقة دفعتي للتفكير في كنه ومعنى ما كتب، وسألت نفسي طويلاً.. ماذا كان صاحب الورقة سيكتب في الساحات الخالية؟ سابقها معي... فربما أكلها بنفسي يوماً ما..

كلية الهندسة، المسجدة

بتاريخ: ١٤ / ٥ / ٢٠١٦

توقيع:

م / محمد صبري

"تمت بحمدِ الله"

القاهرة ٢٠١٦

الشكر الجزيل

لأستاذي الجميل

عمرو العادلي

لتشجيعه و دعمه المتواصل و نصائحه القيمة فلولاها لما

خرجت القصة للنور

و شكر آخر لا أنساه لكل من :

أمي التي علمتني القراءة

أبي الذي أورثني حب القراءة

أخي الذي أرجو ان يحب القراءة !

و كل صديق و صديقة قرأوا العمل و أبدوا ملاحظاتهم أو

ساعدوني في اختيار ما احترت بصدده ، لن أستطيع ذكركم

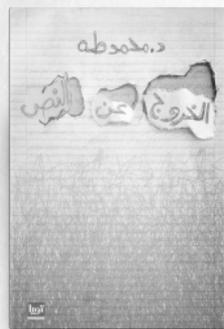
كلكم في صفحة أو اثنتين ، لكنكم تعرفون أنفسكم يا من

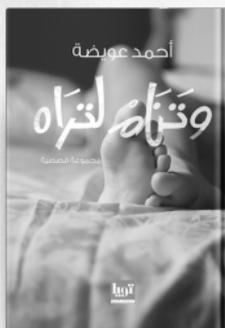
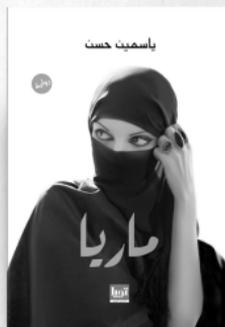
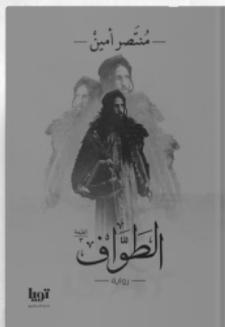
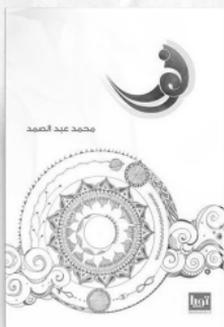
أقصدكم!

للتواصل مع الكاتب



Mhmoud_pc@yahoo.com







دار توياء للنشر والتوزيع